كوابيس

رواية

محمد أبو الفتوح

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الكتاب : كوابيس
تأليف : محمد أبو الفتوح
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : محمد على
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٣ × ١٩
رقم الإيداع : ٢٠٤٧٨ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 13 - 7

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com

محفوظة جميع الحقوق

الإهداء

إهداء إليهم وإلى وقوفهم الدائم بجانبي.. إلى من بدونهم لا أساوي شيئاً..

إهداء إلى والدتي.. نبع الحياة والعطاء الذي لا ينتهي..

إلى والدي.. من علمني الكثير، ولا زلت أتعلم وسأظل..

أخي.. أبي الثاني.. ومن وقف بجانبي منذ قلامة أضافري..

إلى زوجتي رفيقة العمر بحق.. من تحملتني في لحظات جنوني (وهي كثيرة) ولحظة صمتي.. وتحملت معي ما تعلمونه من كتابي «أنا والجان».

إلى أولادي اللي مطلّعين عيني!

إلى والد ووالدة زوجتي.. من أعطوني هدية حياتي..

إلى أولاد أخي.. من أشعروني بأنني أصبحت عمًا..

وهي كلمة والحق يقال قد شيبتني..

كما قلت.. سأظل أهدي إليكم كل ما أكتبه؛ فكل ما فعلتموه من أجلي، هذا هو أبسط ما أقدمه أمامه..

شكرًا لكم.

إلى راسمي البسمة على وجهي كلما رأيتهم.. إلى من أشعروني بأنه ما زال هناك أصدقاء.. فريق صرخة فزع..

إلى الصديق العزيز «عبده رضوان»

إلى كل من علمني ووقف بجانبي وعلم أن بداخلي كاتب صغير..

إلى كل من انتقدني وأصر أنني لا أفقه شيئًا في الكتابة..

إلى كل من عرفتهم على العالم الافتراضي ..... ولا عزاء لمن عرفتهم على العالم الحقيقي.

إليك أنت أيها القارئ.. يجب أن تعلم جيدًا أن هذه الرواية لن تقدم لك الجديد.. ولا يوجد بها معلومات ستفيدك في حياتك العملية.. لكن أعدك أنها ستعطيك بعض السويعات التي ستفرجك مما نواجهه في الحياة.. بعض اللحظات التي ستعزلك عزلًا عما يحيط بك.. ستحلق بك في عالم آخر من الرعب والخيال.. عالم نحتاجه بشدة هذه الأيام لكي ننفصل قليلًا عن واقعنا المرير.. سنذهب معه سويًا ثم نعود لنجتر أحزاننا مرة أخرى..

إلى من عشنا معه في عالم «ما وراء الطبيعة»،

وذهبنا سويًا فى رحلات «سافاري»،

وقضينا أيامًا في «يوتوبيا»،

وبعد أن رأينا «الهول» ورفعنا عليه «السنجة»،

هربنا «في ممر الفئران» إلى عوالم «فانتازيا»

لنحتفل بـ«أفراح المقبرة»..

وننهل منها المعرفة لنحترق جميعًا «مثل

إيكاروس»..

إلى من عشت معه أعوامًا من المتعة هربًا من

الواقع المرير الذي نعيشه..

إلى من استطاع أن ينتشلني من قتامة وظلمة ما

نعيش ولو لساعات..

إلى من علمني وأطلعني على عوالم وأحداث
تاريخية، وأمراض وأوجاع وآلام المناطق الحارة..
أبي الروحي..
العراب رحمك الله وجعل مثواك الجنه .

الفصل الأول

الإرث

الوفاة

استيقظت كعادتي في الصباح الباكر لأمارس طقوسي اليومية المعتادة، قبل الذهاب إلى عملي الممل، لأكمل الحياة الأكثر مللًا.. وعلى غير العادة رنَّ هاتفي وأنا أتناول إدماني اليومي من النسكافيه الساخن، آملًا أن يعطيني بعض الطاقة والنشاط لمواصلة اليوم كما أرى في تلك الإعلانات.. ولكن من الواضح أنها كلها مجرد دعاية كاذبة لا أكثر لزيادة المبيعات والاعتماد على إيحاء العقل الباطن.

نظرت إلى الرقم المتصل.. إنه من مصر، فأنت تعلم أنني قد هاجرت منذ فترة إلى تلك الدولة الأوروبية واستقررت تمامًا فيها وتزوجت وأنجبت.

تســـألني عن مصر.. لم أعد ازورها، ولا حتى لرؤية أبي.. فمنـــذ أن ماتت والدتي كانت زياراتي لا تنقطع كلمـــا تمكنت، ولكن بعد أن تـــزوج بأخرى وأنا لم أعد أجد في نفسي رغبة في زيارته.. اللهم إلا بعض المكالمات بين كل حـــين وآخر لعدم قطع صلة الرحم.

انتزعني رنـــين الهاتف من ذكرياتي فأنحيت الجريدة جانبًا وأنا أحاول استنتاج من قد يكون صاحب الرقم المتصل..

أفتح الخط قائلًا:

- هالو!

أسمع أحدهم يقول:

- السلام عليكم.. «سامح» معي؟

صوت شـــخص غريب عني لم أسمعـــه من قبل.. لا أعتقد أنـــه أحد أقاربي..

أجيبه وأنا أتوجس خيفة وتتسارع دقات قلبي:

- نعم إنه أنا.

يقول:

- مرحبًا.. أنا «جابر».. محامي والدك.

يسقط قلبي بين أقدامي وأنا أسأل في خيفة:

- تشرفنا.. هل هناك خطبٌ ما؟

قال في توتر وعصبية:

- لا أعلم كيف أبدأ الأمر أو ماذا أقول..

هنا أدركت ما يريد قولـــه.. في نفس الوقت الذي قال فيه:

- البقاء لله يا ســـامح.. لقد تـــوفي والدك، وكنا نريدك أن تأتي لإتمام بعض الإجراءات واستلام الميراث.

اختلطت المشاعر في قلبي وبكت عيني بدموع لم أكن أظن أنني ما زلت أملك القدرة على ذرفها.. ما هذا؟ ما الـــذى يقوله؟ والدى مات؟ توفي؟ لا لا هذا لم يحدث.. إنه هناك وسيظل هناك!

هناك خدعة ما.. الأمر غير صحيح.. لا لا لم يمت!

يكمل جابر المحامي:

- أنـــت تعلم أنه منـــذ وفاة والدتـــك ووفاة زوجته الأخـــرى وهو قد انعزل تمامًا عن الجميع.. آه نســـيت أنك لا تعلم شـــيئًا عنه منـــذ فترة كبيرة..

مرت في ذهني ذكريات كثيرة سريعة مريرة.. كان أبي طبيبًا كبيرًا مشـــهورًا يشار له بالبنان، بل هو من أولئك الأطبـــاء الذين يعدون على الأصابع فى مجال الجراحـــة.. ليس في مصر فقط، بل في العالم أجمع..

ولكنه رغم علمه وشهرته وأصابعه الماهرة لم يستطع أن يفعل شـــيئًا لأمي بعد أن أصابهـــا المرض اللعين.. ولم يسامح نفســـه وظل يلومها -نفسه- بعد أن فقدها في غرفة العمليات وهو يحاول أن يســـتأصل ذلك الورم السرطاني البشع.. ولكن أمر الله كان قد نفذ.. ولكنه لم يؤمن بذلك، بل كان كل إيمانه أنه هو الســـبب.. وهو من قتلها!

ظل حبيس عمله وأبحاثـــه واختبارته إلى أن حاول أحدهم أن يقنعه بـــأن يتزوج بأخرى..

رفض الأمر برمته ونهره وصرخ به أنه لن ينســـاها أبـــدًا.. ولكن «الزن على الآذان» أمَرُّ من الســـحر كما يقولون.. خاصـــة بعد أن جائني عقـــد عمل بالخارج وســـافرت وتركته وحيدًا..

اقتنـــع تمامًا وتـــزوج بالفعل.. ومن يومها تشـــعر وكأنما انقلبت حياته رأسًا على عقب.. وكأن زوجته

الجديدة قد ســـحرت له.. قرر أن يترك الطب ويتفرغ لإنفاق الأموال التي ظل يجمعها والاستمتاع بكل ما في الحياة من ملذات وســـفريات ومغامرات..

قطع عليَّ المحامي حبل أفكاري وهو يقول:

- متى ستأتي إن شاء الله يا أستاذ سامح؟

رددت عليه:

- في أسرع وقت.

لم أكذب خبرًا.. أخـــذت إجازة من عملي وحجزت علـــى أول طائرة وتركت زوجـــتي وأولادي ورجعت إلى بلدي مصر.

ما إن هبطت من سلم الطائرة حتى ارتجف جسدي كله وأنا أتذكر كـــم من مرة كان والدي ينتظرني بلهفه.. بحب.. بشـــوق.. والآن أعود فلا أجده هناك بانتظاري.. أنظر وسط الواقفين لعلها خدعة منه ومن المحامي فعلها بغيه رؤيتي ومفجائتي على تقصيري معه منذ زمن.. ولكنني لم أجده.

تدفق الدمع من عيني ســـاخنًا مالحًا موجعًا مؤلمًا، وأدركـــت الحقيقة.. والدي ليـــس هناك.. بل لم يعد

هناك.. لن أراه مرة أخرى.. لن يعود.. لن أشعر بحضنه الدافئ.. بيده الحانية.. بطيبة قلبه.. هذه هي الحقيقة التي يجب أن أعلمها وأن أدركها.. مات بلا رجعة..

انهمرت الدموع.. ولأول مرة منذ زمن أشعر أنني طفل صغير تاه عن والديه.. عصفور صغير وليد لا حول له ولا قوة.. هجم ذلك الصقر على والديه فأكلهما، وهو ينتظر أن يأتي له أحدهما بالطعام.. ولكنهما لن يأتيا، فظل يصرخ ويصرخ من الجوع.. والألم..

كم من مرة أخذني إلى الملاهي.. كم من مرة أخذني إلى المصيف.. كم من مره قبَّلني.. احتضنني.. ساعدنى.. حماني.. كان بالنسبة لي سوبرمان لا يقهر! ولكنني بغبائي وعنادي تركته.. ذهبت.. سافرت.. وقطعته من حياتى!

يا الله.. لم أُصلِّ عليه.. لم أره قبل موته.. لم أدفنه.. لعنة الله على العناد والهجرة.

أوقفت سيارة أجرة وذهبت إلى المحامي لاستلام الميراث ومفتاح فيلا والدي.

طرقت الباب ودخلت عليه وجلست على المقعد.. وهنا بدأت القصة...

الوريث

ارتســـمت على وجهي أشـــد علامات الدهشـــة وأنا اســـتمع للوصية من المحامـــي.. في الحقيقة لم أكن مستوعبًا بالكامل لما يقوله.. طلبت منه أن يعيد الكلام عليَّ باختصار لكي أفهـــم ما يريده فعلًا..

تنهد في ضجر، ثم قال لي:

-أنت الوريث الوحيد.. وعليك الاختيار ما بين أمرين:

إما أن تقبل التركة كاملة وما ســـتحمله لك من تبعات.. مع العلم أنني لا أدري عن أي تبعات يتحدث والدك، وإما أن تترك التركة وتنفـــذ بجلدك وتلوذ بالفرار..

وأنا أقرأ ما هو مكتوب يا سيد سامح.

زفرت في ضيق.. ما هذه الأسرار؟ أنا لا أفهم شيئًا.

نظرت للمحامى وقلت:

- هل هناك خطر ما؟

ثأر مثلًا أو مشاكل ما مع أحد؟

هل تورط أبي في صفقات مشبوهة؟

هز المحامي رأســـه بمعنى أنه لا يدري، ونظر لعيني بانتظار قراري..

كنت مترددًا..

أنا لم أر أبي منذ عدة سنوات..

منـــذ طلبت الهجرة وســـافرت لم أطمئـــن عليه إلا تليفونيًا عدة مـــرات فقط..

أعلم أنني كنت مقصرًا..

وأعلم أن ضميري يؤلمني بشدة، فلم أكن أبدًا ذلك الطفل العاق.. لكنها الحياة..

لكـــن أبي في الحقيقة لم يكن بحاجة لي قط.. فقد تزوج منذ فترة بامرأة بارعة الحســـن، وأخذا يســـافران حول العالم معًـــا.. لم يعد بحاجة لوجودي..

كان أبي غنيًا جدًا.. بالفعل..

فقد كان طبيبًا عالميًا مشـــهورًا، وجراحًا لا يشق له غبار.. إلى أن قرر الاعتزال والاستمتاع بحياته..

كان يعيـــش في لندن.. بـــاع ممتلكاته هناك وعاد ليعيش في القاهرة.. اشـــترى فيلّا فاخرة، وتزوج ، وأخذ ينفق نقوده ببذخ..

وظل هكذا حتى ماتـــت زوجته أمام عينيه في ذلك الحادث الشهير..

عندما غرقت سفينة كانا فيها قرب جزر «هاواي».. ظن العالم أنه لا أحد قد نجى من هذه الكارثة.. وبعد شهر كامل ظهر والدي ..

ظهر مع ثلاثة أشخاص في جزيرة قاحلة، ليس فيها إلا نبع مـــاء صافٍ.. كان كل شـــخص من الرجال الثلاثة قد فقد أطرافًا، وخيطها أبي بإتقان.. وظهرت براعته عندما اســـتخدم أدوات بدائية جدًا، ومع ذلك فقد نجا الجميع.. كان الوحيد الكامل فيهم.. وكان شيئًا غريبًا..

أفقت من ذكرياتي هذه على صوت المحامي:

- أستاذ سامح.. اختيارك؟

تنهدت، ثم التقطت القلم ووقعت على الموافقة على استلام التركة، ثم نهضت وصافحت المحامي وغادرت إلى فيلّا والدي..

فيلتي!

***

دخلت للفيلّا الفاخرة في توتر.. ما زال عطر أبي الفخيم يعبق الجو.. كان شديد الاعتداد والاعتناء بنفسه.. وتذكرت أشياءً كثيرة..

حياة أبي لم تكن سعيدة بالكامل.. فقد توفيت أمي على يديه فى حجرة العمليات وأنا بعد صغير.. هو لم يخطئ في شيء، لكنه لم يسامح نفسه قط..

حتى زوجته الثانية ماتت غرقًا أمام عينيه.. وقبيل وفاته بشهور، كان الجميع يقولون أنه مصاب بالجنون.. بالتحديد منذ عودته من تلك الجزيرة..

أخذت أتجول في الفيلّا .. العجيب أن هذه ثاني مرة أدخلها في حياتي.. كانت فاخرة.. مريحة.. ومقبضة.. ولا تسألني كيف!

كان التوتر يتزايد داخلي.. فأخذت نفسًا عميقًا، وأخذت أتجول أكثر لأكسر حاجزًا نفسيًا بدأ يولد داخلي..

دلفت لحجرة مكتبه وشهقت انبهارًا..

كان عبارة عن ثلاثة حوائط من الكتب، والحائط الرابع عليه جوائز وشهادات..

تقدمت بخطى بطيئة، ثم جلست على كرسيه الوثير.. وعلى المكتب أمامي وجدت ألبوم صوري!

اعتصر الألم قلبي، ورغمًا عني أفلتت من عيني دمعة.. أهذا آخر ما كان يطالعه قبل موته؟

أخذت أتأمل الصور الموجودة وأتذكر ضحكاته معي..

ملاطفته لي..

رباه كم كنت قاسيًا عندما تركته ورحلت..

ثم لمحت تلك الورقة.. ورقة صفراء تحت ألبوم الصور مباشرة..

مكتوب فيها جملة واحدة بخط سيئ جدًا:

«اهرب يا بني.. ستأتي من أجلك»

شـــعرت بالقلـــق يعتصر قلبي حتى تحـــول لخوفٍ شـــديد.. هناك شـــيء ما رهيب يحدث..

قررت أن أنهض وأذهب من هنا ثم أبحث عن مقاول يبيع لي المنزل بما حوى.. أعلم أنني سأخسر، لكنني لا أطيق البقاء هنا لحظة أخرى..

نهضت من على المقعد، وأخذت ألبوم الصور وتوجهت نحو الباب..

وتجمدت فى مكاني فجأة..

اتسعت عيناي من الرعب..

هناك حركة فى الخارج!

إنها هنا

ما هذا الذي أسمعه.. هل أتخيل؟ أصغيت السمع.. بالفعل إنها حركة.. خطوات إن شئت الدقة.. ولكنها خطوات عجيبة ثقيلة مخيفة وكأن أحدهم يجر قدميه جـــرًا، ولكنه يتحرك بثبات.. بهدوء.. ببطء.. وكأنه يعرف اتجاهه جيدًا رغم الظلام بخارج الحجرة..

من هو؟.. ماهو؟!

ماذا يريد؟

تسارعت ضربات قلبي وأنا أتراجع إلى الخلف بهدوء محاولًا أن لا يصدر مني أي صوت..

وهنا سمعت ذلك الصوت..

من أبشع ما يمكن أن تسمعه.. لا تدري ماهيته.. لم أسمع مثله من قبل وأعتقد أنني لن أسمع..

انتصب شعر جسدي بأكمله والصوت يقترب..

ماذا أفعل؟!

أين المفر؟ ليس بالحجرة سوى نافذة كبيرة ولكنها مغلقة من الخارج بتلك الأسياخ الحديدية لمحاولة صد اللصوص..

سأختبئ في الفراغ ما بين الحائط والأريكة..

لا أعتقد أنها فكرة صائبة..

ولكنني لا أملك غيرها؛ فالصوت أصبح على بعد خطوات من الباب، ويبدو أنه يبغي دخول المكتب..

أتراجع بحذر.. بخوف.. أذهب إلى الأريكة.. الخطوات تتوقف.. أدخل في الفراغ.. صوت المزلاج يفتح.. أنزل مسرعًا والباب يفتح..

أصمت تمامًا وعقلي يناشد قلبي أن يتوقف عن الدق قليلًا بهذا الصوت الهادر لأنه سيفضحنا..

اللعنة! ما تلك الرائحة الشنيعة؟

إنها أبشـــع ما شممت في حياتـــي.. مزيج من مياه الصرف، وأكوام مـــن القمامة العفنـــة، مع مخلفات الأســـود! أكتم أنفاســـي حتى لا تميتني الرائحة..

إنه يتجول في أنحاء الغرفة كأنما يبحث عن شيء ما..

هل شعر بي؟

هل يعرف أنني هنا؟

من هو؟

أسترق النظر من خلف الأريكة وأدعو الله أن لا يراني..

تبًا!

أي هول هذا؟

بل أي شيطان! إن ما أراه لا يمت للبشر بصِله..

بشـــري مظهرًا، ولكـــن بوجه ممزق وأســـنان حادة وملابس ممزقـــة، وحركة ثقيلة كأنمـــا يجر قدميه خلفه.. ودماء متجلطة تغرق أكثر من مكان في جسده..

ســـأقرب لك الشـــكل قليـــلاً.. هل تعـــرف أفلام «هوليوود» التي تعج بالزومبي؟ تعلم شكله إذن فلن أطيل الشرح وســـترحمني من محاولة وصفه..

أخذ يتجول وهو يبحث عن شـــيء مـــا.. يفتح في أدراج المكتـــب.. يقلـــب في الأوراق.. يبعثر هنا ويلقي هناك، ثم أخذ يدق بيديه بعنف على المكتب وهو يصدر مجموعة من الأصـــوات التي جعلت مثانتي تكاد تنفجر بما داخلها.. ولكنني تماسكت بأعجوبة، ثم التفت وهو يصدر صوتًا هـــو مزيج من الخوار والعواء..

توقف فجأة، ثم اتجه نحو حائط من حوائط المكتبة ووقف عند كتـــاب بعينه وأخرجه ونظر خلفه، ثم عاد إلى جنونه مرة أخرى.. وظل يصدر تلك الأصوات وهو يضرب بقبضتيه على المكتبة..

هنا فقدت قدرتي على الإمســـاك بمثانتي للحظات قليلة، ولكنها كانت كافية لأشعر ببعض الماء الدافئ..

ثم اعتدل فجأة وخـــرج من الغرفة وهو يجر قدميه خلفه في تلك المشية العجيبة..

الحقيقة

خرج ذلك الكائن الملعون أخيرًا في الوقت المناسب قبل أن أموت مختنقًا.. ظللت أكتم أنفاسي وأنا أصغي السمع، حتى سمعت صوت باب معدني يفتح ويغلق من على بعد..

أخيرًا تركت لأنفاسي العنان وهي تعبُّ الهواء، ونزلت دموعي وأنا أحمد الله انه لم يراني.. فلا أظن أنه كان سيأخذني بالأحضان والقبلات إذا ما رآني!

أخرج من مخبئي.. أتحرك ببطء حذر..

سؤال يدوي في عقلي وذهني.. عمَّ كان يبحث بكل هذا الحماس والعصبية؟

يجب أن أعرف..

أتحرك ناحية البـــاب.. أغلقه بهدوء.. أدير المفتاح فلا أريـــد مفاجآت.. أفحص المكتب جيـــدًا لعلي أجد شيئًا ما..

لكن لا شيء هناك.

أتذكر وقوفه أمام المكتبه والعبث بإحدى الكتب..

أذهب إليها وأنظر...

ما هذا؟

إنه فـــراغٌ وراء الكتب، به مكان لمفتاح ما.. إذن فهذا الشـــيطان كان يبحث عن المفتاح.. بالتاكيد هو هنا في مكان ما..

أحتاج إلى بعض التركيز لأجده..

أفكر أفكر أفكر..

مهلًا.. آخر شيء كان في يد والدي هو ألبوم صوري، وكان في يدي عندما جاء هذا الشيء..

أمسك بالألبوم.. أتصفحه.. لكن لا شيء..

ربما أخطأت..

أين يمكن أن يكون هذا المفتاح؟

أتجول وأنا أفكر في أنحاء الغرفة.. يسقط مني الألبوم ليصدر صوتًا معدنيًا بداخله! أنظر إليه بدهشة.. أنظر إليه بتعجب.. أمسكه.. أرجه.. يصدر نفس الصوت!

أتصفحه جيدًا لأجد أن كعبه يدور حول نفسه كباب سري!

أميله للأسفل.. يسقط المفتاح منه..

أبتسم في ظفر..

أتجه ناحية المكتبة..

أولج المفتاح في الفراغ..

أديره..

يصدر ذلك الصوت: «كليك»..

وهنا حدث أمر غريب.. لقد انقسمت المكتبة نصفين وانفتحت، ليظهر من خلفها تلك الغرفة السرية..

وتخرج معها أبشع رائحة شممتها.. كنت أظن أنه ليس هناك أبشع من رائحة ذلك الكائن، لكنه بالنسبه لما شممت فرائحته كرائحة إحدى ممثلات السينما وهي تتعطر بأغلى العطور!

هنا بالطبع لم تحتمل معدتي المسكينة فقد احتملت الكثـــير، فتصاعدت تلك العصـــارة لتطرق على فمي وتدعـــوه أن يفتح الباب لإفراغ ما بمعدتى..

«أووووع أوع أووووع»

انتهيت من الاســـتفراغ، وحمدت الله أن الرائحة قد بدأت تخفت حدتها مع فتح المكتبة والشـــباك..

أأدخـــل أم أكتفي؟ عقلي يقول بأن ما ســـأراه لن يسرني كثيرًا، ولكن قلبي يصر أنني لن أستطيع العيش وأنا لم أعرف ما بالداخـــل.. صراع انتصر فيه قلبي!

أدخل بخطى حثيثة وأنا أتوقع أسوأ التوقعات..

تجارب محرمة

دلفت إلى الحجرة الســـرية.. من الواضح أن والدي كان يســـتخدمها كمعمل لأبحاثه ولتجاربه..

أتجول فيها.. تبًا!

ما هذا؟ أشلاء لجثث!

جثث غير مكتملة..

أطراف مقطوعة..

رءوس..

اللعنه.. أي مخبول كان والدي؟!

أقفاص حديدية.. مناشير..

خطافات تنزل من السقف كالتي يتم تعليق الخراف عليها بعد ذبحها!

وفي وسط الغرفة شيء كحمام سباحة كبير يمتلئ بماء يميل إلى الاصفرار..

ما هذا الجنون؟ هل أصبح والدي فرانكنشـــتين هذا الزمان؟

ألمح مكتبًا..

أذهب إليه..

عليـــه «أجندة» مكتـــوب عليها بخـــط والدي تطور الأبحاث..

أفتحها وأجلس على المكتب..

وأقرأ ما بها:

أبحاث..

بعدمـــا تم إنقاذنا من تلـــك الجزيرة وموت زوجتي الحبيبـــة، لم أحتمل فكرة فقد زوجـــتي للمرة الثانية..

كنت قد رأيت ما يمكن أن يفعله ذلك النبع لكنني لم أخبر أحدًا.. كنت قد احتفظت بالسر لنفسي..

يمتلك ذلك النبع خاصيـــة غريبة جدًا؛ فهو قادر على تجديد الخلايا الميتة!

وقد اختبرته أكثر من مرة.. كم من جرح أصبت به في تلك الجزيرة.. كم من عضة من حيوان مفترس، ولكنني كنت أعلم أين الدواء.. أجري مهرولًا إلى ذلك النبع لأرمي بنفسي فيه، وأخرج منه سليمًا معافى..

ولكن من نجوا معي لم يعرفوا عنه شيئًا.. لم أسمح لهم بأن يعرفوا.. كانوا كلما أصابهم شيء اعالجهم بتلك الأدوات البدائية والأعشـــاب البرية و«البلاسيبو» يتكفل بالباقي، حتى عندمـــا احتاجت اطرافهم للبتر من جراء تلك «الغنغرينا» لم أخبرهم بالسر..

لا لا.. لـــن يعلمه أحد.. تتهمـــني بالجنون وعدم الرحمة؟

إنك لا تدري إذا اكتشـــف سر مثل هذا.. ما الذي سيحدث؟

ستستولي عليه الحكومات لنفسها ولن يستفيد منه أحد.. ولكنني سأحاول أن أفيد البشرية جميعها..

نرجع إلى بلادنا بعد أن تم إنقاذنا..

أستخدم سلطاتي ونفوذي ونقودي لأعود مرة أخرى بفرقة بحث كاملة لأبحث عن جثة زوجتي الغارقة.. بعد كثير من البحث والوقت وجدتها.. كانت قد انتفخت من الماء، ولكنها كاملة لم تفقد شيئًا من جسدها الجميل.. لم أعرف كيف لم يأكلها كائن من كائنات البحر!

أحملها إلى فيلتي..

أدفع كثيرًا من الأموال لكي أضمن ألا يفتح أحد فمه، وأخبرهم أنني زوج عاشق وأريدها أن تدفن في حديقة الفيلّا كي أكلمها كل يوم وكأنها معي..

يترقرق الدمع في عيونهم مصدرين ذلك الصوت من فيهم «مسم» وانصرفوا وهم يتحدثون عن قصة الحب الخارقة..

آخذها إلى المعمل.. أحاول أن أحفظها بالفورمالين والثلج كي تظل أكبر فترة ممكنة على حالتها..

أذهب مرة أخرى وأملأ خزاناتٍ من النبع وأصبها في الفيلّا.. ملأت كمية كبيره منها.. والآن فلأبدأ التجربة..

التجربة الأولى

قطعـــت يدي قطعًا صغيرًا، ثم أخذت بعضًا من الماء في إناء صغير وأغرقت يدي فيه.. ورأيت المعجزة تحدث أمامـــي.. الجرح يلتئـــم.. واليد تعـــود كما كانت!

يا الله.. أي نبع شيطاني هذا..

التجربة الثانية

قطعت جرحًا طوليًـــا بطول يدي ووضعته كما في المرة السابقة..

التجربة الثالثة

أحضرت قطًا وعرضتـــه للتعذيب، حتى أصبح على مشـــارف الموت، ثم غمرته بالماء.. اللعنة!

لقد أفاق وقام كأنما لم يكن يموت منذ لحظات!

التجربة الرابعة

ابتعت بعض الجثث من أحد حارسي القبور، بل قل سارقي القبور.. وعدت بها مسرعًا إلى معملي..

أخذت أقسمها وأقطعها.. كل طرف في مكان..

والرأس؟!

لا أريد أن أجرب الجثة مرة واحدة.. يجب أن لا أدع فرصة للخطأ؛ فلا أعلم كم فرصة لدي..

قطعت اليد ووضعتها ولكن لم يحدث شيء. انتظرت فترة ولكنها ظلت كما هي.. لم يحدث شيء.. خلاياها ما زالت كما هي ميتة..

أطلقت سبة ثم انطلقت ألكم الحائط والدموع تغرق عيني..

كل ما بنيت عليه أحلامي ضاع..

كل طموحاتي وآمالي تحطمت..

لن أقدر على إعادتها للحياة مرة أخرى..

قدري أن أفقد زوجتي مرتين..

خرجت من المعمل والغضب يجعلني أرتجف..

يغلبني النوم من شدة الغضب..

أستيقظ في اليوم التالي..

أدخل إلى المعمل..

هنا أجد المفاجأة!

العودة

لقد عادت خلايا اليد إلى الحياة

أخذت أرقص وأغني وأصفق.. من الواضح أن الجثث تحتاج إلى وقت أكبر من الخلايا الحية المصابة..

أستمر في الأبحاث والتجارب على باقي الأعضاء.. كلما زاد عدد الخلايا في العضو، كلما احتاج وقتًا أكثر للعودة إلى الحياة..

وضعت رأسًا وغمرتها بالماء.. احتاجت إلى فترة أكبر من اليد.. من المؤكد بسبب خلايا المخ، ويا للعجب.. لقد انفتحت العينان وأخذتا تتحركان يمينًا ويسارًا وكأنهما تراقبانني!

أخذت أجرب وأجرب.. حتى أصبحت قادرًا على تحديد الوقت المناسب لعودة كل جزء للحياة..

والآن حانت اللحظة الحاسمة.. سأغمر جسد زوجتي حبيبتي بالماء وأتركها.. على حساباتي سيتم الاستيقاظ والعودة إلى الحياة في غضون شهر.. سأنتظر، ولكن هذا الشهر سيمضي كالسنوات.. ولكنني لا أملك إلا الانتظار..

***

مر أسبوع..

يكاد القلق يحطمني.. ما الذي سيحدث، هل ستعود؟

***

أسبوعان..

تحول القلق إلى كلب مسعور ينهش في لحمي.. هل سيحتمل قلبي كل هذا التوتر؟

***

الأسبوع الثالث..

أشعر أنني قد كبرت عشرات السنوات، وأصبح النوم لي وكأنه الجنة.. لم أذقه منذ أيام..

***

الأسبوع الرابع..

الليلة سـأرى نتيجة مـا فعلت، وأتمنـى أن تفلح التجربة..

زوجتي العزيزة سـتعود إليَّ ولن يفرقنا أحد.. حتى الموت نفسه لن يفرقنا!

سـأعلمها كيف تعيدني للحيـاة إذا مت وهكذا.. سـنظل معًا في خلود أبدي سويًا..

أهبط مسرعًا إلى المكتبة.. أفتح الباب متلهفًا..

أدخل مهرولًا.. أنظر إلى المغطس.. أجدها في أسفله وخلاياها بدأت في العودة إلى الحياة..

ولكنها لم تستيقظ!

ما هذا؟!

حساباتي كلها سليمة..

لا هذا ليس حقيقيًا..

كلا ليس بعد كل هذا..

شهر من العذاب ولا شيء؟

لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا!

خرجت مسرعًا وأنا أطيح بكل ما يقف في طريقي..

أركل الكراسي.. أضرب رأسي في الحائط..

ألكم بيدي أي شيء يوقعه حظه العاثر في طريقي..

أجري..

أتخبط..

أتعثر..

أقع على وجهي..

أنتفض..

أبكي..

أصرخ..

يغشي علي..

أستيقظ على تلك اليد التي تتحسس جسدي..

أفتح عيناي بصعوبة..

يرتجف جسدي كله..

إنها زوجتي.. أو شيء ما يشبه زوجتي!

نظراتها الزائغة..

رائحتها العفنة..

الزبد الذي يتساقط من شفتيها..

أنيابها من داخل فمها..

كلا.. إنه مسخ في هيئة زوجتي..

أنتفض واقفًا فتخذلني قدماي لأسقط مرة أخرى..

أي هول أتيت به إلى بيتي!

أصدَرَت مجموعة من الأصوات الغريبة..

مرعبة مخيفة..

انتفض قلبي رعبًا وانتصب شعر جسدي وأنا أقول لها:

- مرحبًا حبيبتي.. كيف حالك؟

لم تجب سوى بتلك الأصوات العجيبة..

ثم أوقفتني وأخذتني معها وهي تشـــدني إلى المعمل، لأجد أفظع مـــا يمكن أن أتخيلـــه.. الأذرع والأطراف ملقـــاة في كل مكان، وقـــد تم قضم قطع منها!

نعم.. من الواضح أنها اســـتيقظت جائعة فالتهمت تلك الأطراف!

إنها الشيطان ذاته..

أخذت تشير إلى الجثث وهي تتحسس رأسي بحنو.. يبدو أنها ما زالت تتذكرني..

ماذا أفعل؟ أأقتلها؟

ولكنني لا أقدر، فأنا أعشقها إلى الجنون..

حســـنا لا شـــيء هناك.. لقد عـــادت، ولكن قائمة طعامها قد تغيرت قليلًا.. وهذا الحارس يســـتطيع أن يوفر لنا الجثـــث التي نحتاجها في أي وقت، وســـتظل زوجتي معي.. أهم شـــيء أنها معـــي، وليحترق العالم بأجمعه!

ظللت أطعمها وأحافـــظ عليها كما يربي أحدهم أســـدًا في حديقته، إلى أن حدث ما لم أتوقعه.

لحم حي

أختار ذلك اللص البائس أسوأ الفيلّات لسرقتها..
لم يعلم ذلك البائس ما الذي سيواجه؛ فهو استعد جيدًا للكلاب المدربة، ولكنه لم يستعد للزومبي!

كنت أغط في نوم عميق عندما سمعت أبشع صرخات يمكن أن تسمعها..

صراخ غزالة سقطت في يد أسد، سيد قشطة، في فم تمساح!

قفزت من على فراشي مسرعًا وهبطت الدرجات قفزًا..

(عجبًا لقد سكتت الصرخات!)

هنا علمت بأنني قد أحضرت إلى العالم كائنًا من جهنم.. لقد انقضت عليه وأخذت تلتهمه حيًا..

لم يكن بيدي شـــيء لأفعله لهذا البائس.. نظرت في صمت لمـــا يحدث أمامي، والتفتت هـــي إليَّ بفم مليء بالدماء وتبتسم!

ثم أعطيتها ظهري وصعدت السلم عائدًا إلى غرفتي ودموعي تنهمر كالشلال.. ولا أعلم ما الذي سأفعله..

نمت ولا أعلم كيف.. نمت والكوابيس لا تدعني في حالي.. استيقظت صباحًا لأجدها واقفة تنظر إليَّ ثم تاخذني إلى جثة اللص، وتشير إليه ثم تشير إلى المعمل وتحرك رأسها بمعنى «لا»

من الواضح أن طعم اللحم الحي والدماء الساخنة قد أثارا إعجابها أكثر من الميتة..

ومـــن يومها وأصابتني اللعنـــة وأصبحت ملعونًا في الســـماء والأرض، وأنا أتجول ليلًا أبحث عن الشحاذين والمجاذيب وأطفال الشوارع، وأستدرجهم إلى منزلي بأي حجة، وأدخلهم المعمل وأدعها تلتهم وجبتها في استمتاع وأنا أبكـــي دمًا، ولا أعلم كيـــف يحتمل قلبي كل ما يحدث أمامه..

لم أقدر على قتلهـــا.. أو قل لم أجرؤ، ولم أقدر على عدم تلبية طلباتها..

إذا كنت تقرأ هذه الأوراق يا ســـامح فهذا يعني أنني قد مت..

وأعتقـــد أن أقل ما أورثه لك هـــو هذه اللعنة التي بدأتهـــا أنا.. وهي أقل شـــيء أقدمه لـــك جراء عدم سؤالك عني وتجاهلك لي وكأنني لست أبيك فهنيئًا لك!

***

النهاية

أظلمت الدنيا أمام عيني وأنا أقرأ ما كتبه والدي..

أي جنون هذا؟

أكان يظن أنه إله؟

محاوله إحياء موتى!

من الواضح أنه قد تلبسها روح ما أو شيء ما..

أخـــذت أفكر فيما قـــرأت وأتخيل.. لـــو كانت قد أمســـكت بي لفعلَت كما فعلَت مـــع ذلك البائس..

حمدت الله..

وهنا تصاعدت تلك الطرقات المحمومة على الباب.. من الواضح أنها قد عادت مرة أخرى.. ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ ستجدني..

يا للهول!

ازدادت الطرقات حدة وقوة، حتى أنني ظننت أن الباب سيخلع..

أسقط في يدي ولم أدرِ كيف أتصرف...

لكن يجب أن أتحرك في سرعة..

عدت إلى مكاني الأول وتوقفت الطرقات فجأة وسمعت الخطوات تبتعد..

عمل عقلي سريعًا وانطلقت الفكرة في ذهني..

تركت المكتبة مفتوحة من جهة واحدة وأغلقت الجهة الأخرى..

ثم فتحت باب المكتب وهرعت إلى مخبئي الأول وانتظرت، فلا أملك إلا الانتظار..

مرت ساعة... ساعتين.. حتى ظننت أنها لن تعود..

جائت وهي تطرق الباب وتفتحه في عنف..

وما إن رأت المكتبة مفتوحة حتى اندفعت بداخلها وانقضت على إحدى الجثث المتعفنة وأخذت تلتهمها في عنف.. في سرعة.. في نهم.. في اشتياق!

من الواضح أنها لم تأكل شـــيئًا منذ وفاة والدي.. والـــذي لا أعلم أيجوز أن أطلب له الرحمة بعد كل ما فعل؟!

لم أكذب خـــبرًا.. انطلقـــت كالعدائين وأغلقت الجهة الأخرى من المكتبة وأخذت المفتاح.. لمحتها وأنا أغلق البـــاب وهي تندفع نحوي..

أخذت تدق على الباب بقـــوة.. بحماس.. بعنف.. دقائـــق حتى فتر حماســـها ويئســـت وعـــادت لالتهام وجبتها.. غطيت مـــكان المفتاح مرة أخـــرى بالكتاب، وخرجـــت وأنا لا ألوي على شـــيء..

تسارعت ضربات قلبي واندفع الأدرينالين متدفقًا فى أنحاء جسدي..

أهرب مسرعًا..

أركب سيارتي.. أفكر فيما سأفعله..

هل أتركها الى ان تموت؟

ولكن المكتبة بها مخزون لا بأس به من الجثث..

أأبيع الفيلّا بما فيها؟

ولكن إذا اكتشـــف أحدهم المكان أو خرجت هي بأي طريقة كانت...

لا.. لـــن أحتمل مـــا يمكن أن تفعله بالمشـــتري إذا خرجت..

ماذا أفعل؟

علمت الآن ماذا سأفعل..

أتجه إلى محطة البنزين..

أطلب كمية من البنزين لسيارة صديق..

مظهري..

ملابسي.. سيارتي.. نقودي..

كلها أمور توحي بالثقة..

أعود مســـرعًا.. لن أسمح لهذه الشيطانة أن تحطم حياتي وأن تســـتمر في عالمنا.. أقف على باب الفيلّا.. أتصـــل بالشـــرطة والمطافـــئ.. هنـــاك مجموعة من اللصوص هجموا على الفيلّا وأنا بالخارج، وتشـــاجروا ســـويًا فاندلعت النيران في الفيلّا.. لم أجد سوى هذه الرواية لتفســـير الجثث الموجودة..

أصعد في سرعة.. أغرق المكتبة والمكتب بالبنزين.. ألتقط الكبريت.. أشعله وأقف بعيدًا.. ألقيه فيلتقي مع النار كعاشقين لم يريا بعضهما منذ سنوات.. تندلع النيران.. تأكل غرفة المكتب فالمكتبة وما خلفها..

أسمع صرخاتٍ مهولة غير عادية.. أدعو الله ألا تخرج وأن تنتهي الليلة على خير، وأن تحضر الشرطة والمطافئ بعد موتها، وقبل أن تأتي النار على الفيلّا كلها..

تلتهم النار الباب السري.. ألمحها من بعيد وهي تندفع صارخة وجسدها قد تفحم وحال لونه إلى الأسود..

اللعنه! إنها تجري باتجاهي.. أغلق باب المكتب.. إنها تدق عليه كألف ألف مطرقة.. سينهار الباب..

أقف مصدومًا..

أقف متسمرًا..

الباب ينهار تحت وطأة ضرباتها.. تندفع نحوي وهى تصرخ..

أقف.. أنتظر النهاية..

لا أمل.. لا نجاة.. لا...

بووووووم!

تنطلق تلك الرصاصة من مســـدس أحد الضباط عليها، ولكنها تســـتمر في اندفاعها نحوي!

رصاصة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

إلى أن تسقط أرضًا وجسدها يرتجف ويرتجف إلى أن سكن إلى الأبد..

هنا لم أتمالك نفسي وتركت العنان لدموعي، وأنا أشاهد رجال الإطفاء وهم يسيطرون على الحريق..

ورجال المعمل الجنائي وهم ينتشلون الجثث..

شكرت رجال الشرطة..

ذهبت للنيابة.. أدليـــت بأقوالي.. وانتهى الكابوس والحمد لله.

لا أعلم كيف سيكون حساب أبي.. ولكنني لن أخبر أحدًا عن الينبوع وعن التجارب ولتكن أسراري، وسألقيها في جانب مهمل من الذاكرة وأغلق عليها جيدًا!

أعود إلى الفيلّا وأجد ماء النبع كما هو.. أأتخلص منه أم أدعه؟ فقد أحتاجه يومًا ما..

***

في المشرحة كان ذلك الطبيب الجديد يُشرِّح تلك الجثة المحترقة المتفحمة لسيدة مصابة أيضًا بعدة طلقات نارية، وهو يسجل في جهاز بجانبه ما يُشرِّحه.. وفجأة أمسكت الجثة بيده

ثم اعتدلت منتصبة وقفزت عليه وهي تلتهم عنقه.. وهو

يصرخ..

ويصرخ..

ويصرخ..

الفصل الثاني

عم «حسين»

يومٌ جديدٌ مملٌ كالعادة..

الاستيقاظ مبكرًا بلا هدف وبلا أمل..

قمت متكاسلاً على يد أمي وهتافها لي طالبة مني أن أذهب للبحث عن عمل.. تململت متافقًا فهذا ما أقوم به كل يوم منذ ما يقرب من عام كامل ولا يجد جديد.. بدأ الأمر بعد تخرجي من كلية الشعب (تجارة).. أخذت شهادة الإعفاء من التجنيد لأنني وحيد والديّ.. وانطلقت بعدها بحماس كنمرٍ يبحث عن غزالةٍ لافتراسها، فوجدها أمامه تعطي له ظهرها، فانقض بكل قوته عليها ليلتهما بكل قسوة وسرعة..

ولكنه اكتشف أنها مريضة وأن لحمها مرٌ وقد أصابته بالعدوى من مرضها..

ظننت بتقديري ودراستي وإعفائي أن الشركات ستتهافت علي وتتخاطفني أيديهم في سرعة..

كنت أنزل كل يوم بحماس منقطع النظير ألقي بالسيرة الذاتية في هذه الشركة وفي تلك.. مقابلة هنا ومقابلة هناك..

ولكن لا جدوى..

شيئًا فشيئًا فتر حماسي حتى تلاشى تمامًا..

مر عام وأنا لا جديد..

«محلك سر» كما يقولون..

ولكن أمي لم تيأس..

ظلت توقظني كل يوم على أمل أن يكون هذا اليوم أفضل من سابقه..

كم هي عظيمة الأم فعلًا..

عطاء بلا حدود وبلا نهاية..

جبل شامخ يقف في ظهرك.. في المرض هي بجانبك.. في الحزن تؤازرك.. في كل قرارت حياتك معك.. توجهك.. لا تنتظر منك شكرًا أو معروفًا..

نهر حب لا يتوقف.. تتمنى أن تخلع قلبها وتعطيه لك ولا ترى دمعة في عينك أو تراك حزينًا..

نهضت من فراشي ودخلت إلى الحمام لآخذ حمامًا ساخنًا يفيقني من الغيبوبة التي ما زالت تحيط بي..

صليت الظهر ونزلت لأبدأ يومًا جديدًا في تكسير عظام قدمي من البحث..

كالعادة مررت بعدة شـــركات، فقد قمت بتقسيم مناطق القاهرة بالشـــركات والبنوك، وقررت أن أذهب إلى عشرٍ كل يوم وتقديم سيرتي الذهبية، على أمل أن يهاتفني أحدهم يومًا ما.. ولكن ما اكتشـــفته في هذا العام في بلدي الجميل أن العثور على إبرة فى كومة من القش، لهو أسهل كثيرًا من أن تعثر على عملٍ يعطيك أمـــلاً في حياة كريمـــة.. ويكون مناســـبًا لمؤهلاتك وتقديرك.. و«الكورسات» التي درستها خلال دراستك..

لا أســـتنكر أنه قد جائتني عدة أعمال، ولكنها كلها لا علاقة لها بدراســـتي ولا ما درسته خارج الجامعة من كورسات..

فكرت فى إحدى لحظات الضعف أن ألتحق بأحدها، ولكنها كانت لا تكفي لمعيشة برص فاخر يحترم نفسه!

بعد كثير من المشـــي واللف أخـــذت طريقي عائدًا للمنزل..

وكعادتى اليومية عرجـــت على ذلك المقهى الذي ألقي بنفسي عليه كل يوم في طريق عودتي.. أحتسي بعض القهوة والقليل من الشـــاي متأملًا ومراقبًا من يجلس حولي، ومتأملًا حـــال الناس المكفهرة الوجه..

ألقيت بجسدي على الكرسي وأنا أكاد أصرخ ألمًا..

جائني عامل المقهى.. طلبت بعضًا من القهوة (على الريحة)..

ارتشفتها وأنا أنظر إلى الناس من حولي..

يا الله! مال حال الناس يزداد سوءًا يومًا بعد يوم.. تشعر أنهم ذاهبون أو عائدون من أتون مشتعل، أو يساقون إلى جهنم زمرًا!

كم أنتِ قاسية أيتها الحياة..

كم أنتِ قاسية يا بلادي..

تجد شبابها وأهلها لا مكان لهم فيها..

أما من خارج بلدها فهم من يتقلدون المناصب بأكبر الشركات..

أو إذا كنت من أصحاب الوسائط، أو عائلتك من علية القوم فإنك لا تحمل هم شيء أو تحسب حسابًا لأي شيء..

يتناثر من حولي على موائد المقهى الكثير من الشباب الذى اعتبر المقهى هي ملاذه وبيته، وربما يقضون فيها أكثر مما يقضون في بيوتهم مع عائلاتهم..

كبار السن الذين تخلى عنهم أولادهم في الكبر بعد ما تعبوا كثيرًا من أجلهـــم في الصغر.. يا الله.. هل سيكون هذا حالي؟

هل سيتركني أولادي بلا سؤال عني؟

سرحت قليلًا ثم ضحكت كثيرًا..

أي أولاد وأنا لا أجد عملًا يكفيني حتى!

أســـقط في يدي.. الزواج.. هل سأتزوج في يوم من الأيام؟

أعتقـــد أنه ضرب من ضروب الخيال العلمي في هذه الأيام.. حتى إذا وجدت عملًا مناسـًبا.. من أين سآتي بالشـــقة وفرشها.. والشبكة والفرح والسفر و، و، و...

اللعنـــة.. أطلقت زفرة حارة وأنا أتخيل موت والدتي وبقائي وحيدًا، ثم يدركني الموت وأنا لم أقدم اي شـــيء في حياتي..

فرت من عيني دمعتين وأنا أتخيل ما سأصبو إليه في المستقبل..

ارتفـــع أذان المغرب فأعـــاد إليَّ بعضًا مـــن الراحة النفسية.. رددت وراء المؤذن ثم قمت متجهًا للمسجد.. توضأت ووقفت لأصلي.. يا الله.. كم أنتِ رائعة أيتها الصلاة.. تشـــعر وأنت تصلي براحة نفسية غير عادية، وكأن همومك وأحزانك ومشاعرك السوداء قد ذهبت بعيدًا..

ناجيت ربي وأنا ســـاجد، وشعرت أنه لن يتخلى عني، وأن ما أريده ســـأحصل عليه، إن لم يكن أفضل منه..

انتهت الصلاة وعـــدت إلى المقهى لتناول كوب من الشـــاي ثم أعود إلى منزلي..

وما إن جلســـت حتى رأيته يأتـــي من بعيد.. ذلك العجوز الذي أراه منذ اعتدت على ارتياد ذلك المقهى..

متغضن الوجه.. محنِ الظهر..

تشـــعر أن هموم الدنيا كلها ملقـــاه على كاهله وعاتقه..

اقـــترب وهو يحمل علـــى كتفه ذلـــك الصندوق الـــذي يبيع فيه بعض المناديل ولعـــب الأطفال وبعض الخردوات..

لا ينسى بين كل فينة وفينة أن يطرق عليه طرقتين بتلك العصا الصغيرة التي يحملها معلنًا عن نفسه وعن وجوده..

ها هو يقترب من المقهى باحثًا عن لقمة العيش.. في يوم من الأيام سألت عامل المقهى عنه فقال أنه عم «حسين».. يأتي دائمًا من حين لآخر لبيع ما يحمله، بعد أن تركه أولاده فريسة للفقر والسن، ثم انصرف وهو يصيح لأحد الزبائن: «أيوه جاااي»

رأيته يأتي من بعيد بتلك المشية التي تشعر معها أنه يجرجر قدميه خلف ظهره المحني، والصندوق على كتفه يزيد من انحنائة ظهره..

يقترب وهو ينادي بتلك الكلمات المبهمة التي لا تعلم ما هي، حتى أنني ظننته يتكلم لغة أخرى أو يلقي علينا بعض التعاويذ!

أتأمله.. يا الله.. هل سيصبح هذا حالي على كبر؟ أين أولادك لعنه الله عليهم؟!

كيف يتركونك وأنت في الزفير الأخير من الحياة هكذا؟

تجول كثيرًا بين المارة وبين الجالسين لعل أحدهم يشتري منه أي شيء، ولكن الكل في غمرتهم يعمهون.. كأنه خيالٌ أو ظلٌ يمر بينهم.. جلس على أحد الكراسي وطلب كوبًا من الشاي.. أخذ يرتشفه في بطء وهو يدير عيناه على الناس من حوله.. انحدرت دمعتان من عينيه أصابا قلبي في مقتل، ثم قام يجر نفسه جرًا متجهًا ناحية المكان الذي أتى منه..

لا أعلم كيف قمت ودفعت حساب ما شربته وتتبعته . .

ترى أين يقيم؟

هل يقيم بمفرده فعلًا؟

أين زوجته؟ أين أولاده؟ أين أهله؟

لمَ تركوه هكذا؟

أليست في قلوبهم ذرة رحمة أو شفقة؟

ظل يسير ببنيته الضئيلة وخطواته المتعسرة وأنا خلفه لا أعلم ماذا سأفعل..

ولكنني خلفه.. من حارة إلى حارة، ومن زقاق إلى زقاق.. حتى توقف عند بيت عتيق من طابق واحد

تشعر أنه ســـينهار في أية لحظة، ثم دخل وأغلق الباب خلفه..

انطلقت أبحث عن أي مكان لابتياع بعض الطعام.. وجدت «مسمطًا» يبيع لحم الرأس وخلافه بالقرب منه..

ابتعت كمية لا بأس بها من الطعام ثم توجهت إليه وطرقت الباب..

تقول أنني مجنون؟! أنا معـــك في قولك! لا أعلم لماذا أقدمت على هذا.

ماذا سأقول له؟

ما حجتي؟

فلأرتجل..

خطوات تقترب.. لقد ســـبق الســـيف العزل.. فتح الباب ورآني أمامه..

تلعثمـــت قليلًا وأنا لا أعرف ما أقول، ولكنه عاجلني وقال في صوت أصابه الوهن:

- فلتتفضل يا بني.. لا تظن أنني لم أشعر بك وأنت تتبعني فالكثـــير قبلك فعل.. أشـــتم رائحة طعام.. فلتدخل لنأكل ســـويًا فليس هناك أحد غيري..

وأفسح لي الطريق وهو يعطيني ظهره لأدخل خلفه وأنا أشعر أن قلبي سيتوقف من الخجل..

كان منزلـــه عبارة عـــن حجرة ملحـــق بها حمام ومطبـــخ صغير..

فقط..

فرش على الأرض، وبعض الآنية بها ماء..

اســـتأذنته للجلوس على الفرش، فـــأذن لي، وجاء وجلـــس جواري.. وســـاد الصمت فترة..

طلبت منـــه أن نتناول الطعام ســـويًا، فوافق بدون تردد.. وببســـاطة.. وكأنه معتاد على هذا الموقف..

أخـــذت أحاول أن أعرف منه قصته.. ما الذي حدث في حياته كي يكون وحيدًا الآن؟

رفع عينين مرهقتين، على إحداهما ضباب خفيف.. وبصوت ضعيف مرتجف قال لي:

- وهل أنت على استعداد أن تسمع؟

أومأت برأسى أن نعم.. أريد أن أسمع..

تراجع بظهره المحني للوراء حتى استند على الحائط..

وبدأ يحكي...

البداية

شرد بصره وصمت كثيرًا وهو ينظر إلى اللاشيء..

ثم تكلم عم حسين بصوت مزقته السنون وهو يقص علي قصته وقال:

- إنهـــا لعنتي ولا أحد يتحمل مـــا حدث.. لا أحد يتحملها غيري أنا..

لقد بـــدأت اللعنة فيما مضـــى.. في القرن الثامن عشر..

تنظر إليَّ بدهشـــة؟ نعم حقك؛ فأنا أبدو في العقد الثامن من العمر، لكن ليس هذا هو عمري الحقيقي.. فأنا أملك مـــن العمر العديد من الســـنوات لا أدري عددها..

لا داعـــي لأن تفغـــر فيهك هكذا ليتســـاقط منه لعابـــك.. أنصت واصغ واســـتمع، فإن ما ستســـمعه ســـتصدقه بصعوبة إن صدقته، لكـــن أنت الذي أراد أن يعرف.. ويجـــب على من يعـــرف الحقيقة أن يحترق بها.. مثـــل إيكاروس..

ألم تسل نفســـك كيف أدخلتك بيتي بكل سهولة وبساطة وبلا تعقيد؟

أتعتقد أنني لم أنتبـــه إليك منذ فترة وأنت تراقبني وأنت جالس على ذلك المقهى؟

ألم تحسب أنه مجرد فخ لاستدراجك إليَّ، حتى تأتي إليَّ بنفســـك دون أن أجبرك على هذا، وان تســـتأذنني لدخول بيتي..

فلتخلع عن عينيك تلك النظرة البلهاء واســـتمع جيدًا لقصتي

كنـــت في أوروبا كما قلت لـــك في القرن الثامن عشـــر.. وقتها حدثت طفرة في جميع المجالات عامة، وخاصة المجال العلمي.. اكتشـــافات.. اختراعات.. ابتكارات.. تطور علمي سريع.. وأنا من ضمن القلائل الذين برعوا في مجـــال الكيمياء والفيزياء..

جالسًـــا في شـــرفتي ليلًا متأخرًا في ليلة من إحدى الليالي ذات السماء الصافية.. والقمر بدر مكتمل ينير السماء إنارة كاملة..

وفجـــأة أضيئت الســـماء بضوء غريـــب.. رهيب.. قـــوي.. للحظات أتبعه صوت شـــيء يقـــع في حديقة منزلي..

هبطت من الشـــرفة مهرولًا ودقات قلبي تتسارع، وأنا لا أدري ما الذي حدث..

وجدت ذلك النيزك.. لسبب ما لم يحترق بأكمله.. تبقت منه قطعة صغيرة، بل قل حصاة صغيرة..

اقتربت منه في هلع.. في رعب.. في خوف..

أخذت أتلفت يمينًا ويسارًا.. هل من أحد قد رأى ما حدث؟

هل سمع أحدهم الارتطام؟

دقائق ولم يظهر أحد..

أهلت عليـــه التراب وغطيته جيـــدًا ووضعت علامة على مكانه..

لا بأس.. سـأنتظر للغد وسـيكون وقتها قد ذهبت حرارته.. ووقتها يمكنني أن أمسكه.. تسألني لمَ لم أخبر أحدًا؟

هل جننت؟

إنني عالم.. ولست بأي عالم..

هـل تعتقد أن هناك أحد قـد حظي بهذه الفرصة من قبل؟

لا أعلـم كيف غلبني النـوم، ولكنـه كان مليئًا بالأحـلام العجيبة..

ويا ليتني انتبهت لها وقتها.. وكأنما النيزك كان يبث لي من خلال الحلم ما كان سيحدث في المستقبل ولكنني لم أستمع إليه ولم أفهم..

أرى نفسـي وأنا أشـيخ وأكبر، والعمر يمر بي وأنا كما أنا لا أموت..

يموت كل من أعرفهم.. أقاربي.. زوجتي وأولادي..

وأنا كما أنا لا أموت..

تمر السنون والعالم يتغير..

وأنا كما أنا لا أموت..

حرب عالمية.. تدمير للعالم..

وأنا كما أنا لا أموت..

الكوكب ينفجر وتنقرض الحياة..

وأنا كما أنا لا أموت!

استيقظت في اليوم التالي منتفضًا قافزًا من على الفراش، وكلي شوق ولهفه لمقابلة حبيبتي.. أقصد ذلك النيزك...

هبطت مسرعًا وبدأت الحفر في المكان الذي أخفيته فيه، وكنت أتحجج إذا مر أحدهم وسألني عما أفعل بأنني سأزرع بعض الأزهار..

إلى أن وصلت إليه.. كان لونه غريبًا.. لم أر مثله من قبل..

هل تعلم لون الباذنجان إذا ما مزجته بلون الخيار؟!

هل تخيلت؟

لم تقدر..

أنا كذلك لا يمكنني تخيله إلا إذا رأيته..

أخذته إلى معملي، وكأنني أسد يحمل شبله ويخاف عليه من الضباع التي تجمعت من حوله..

تلفتُّ وتلفتُّ وتلفتُّ حتى تأكدت أنه لا أحد هناك ليراني..

وفي المعمل كانت المفاجأة.. لم يكن من معدن معروف على وجه الأرض.. اختبرته بكل الأدوات المتاحة وقتها وبكل التحاليل والتجارب الكيميائية.. لكنه لم يكن يتفاعل مع أي شيء..

جلست وأنا أرى حلمي يتبخر من أمامي.. وأن ما ظننته ذهبًا أصبح رمادًا..

ولكن مهلًا.. إنني ألمح شيئًا..

نظرت إليه جيدًا.. هناك شيء ما يتحرك حركة خفيفة ترى بصعوبة بالغة.. أحضرت المكبر وأخذت أتفحصه جيدًا..

نعم إنه كائن أولي غريب يشبه الفطر الصغير إلى حد كبير.. اقتربت منه لفحصه، وهنا قفز بالمعنى الحرفي ودخل بأنفي.. أجفلت وتراجعت إلى الخلف وسقطت على ظهري.. وأغشي علي..

***

اللعنة

صمت عم حســـين ليلتقط أنفاسه وقام يعد بعض الشـــاي الثقيل، وما إن فتح البراد حتى خرج منه ذلك الفـــأر الصغير وهو يقفز مفزوعًا هاربًا..

أطلق عم حســـين ســـبة وأكمل عمل الشاي كأن شيئًا لم يكن، ولم يكلف نفسه حتى غسله ببعض الماء..

ثم نظر إليَّ وسألني:

- أتريد بعضًا من الشاي؟

نظرت إليه ثم إلى البراد، ثم إلى المكان الذي اختفى فيـــه الفأر وقلت وأنا على وشـــك تقيؤ ما أكلته معه منذ قليل:

- أشكرك، فقد امتلأت بطني عن آخرها.

أدار إليَّ ظهره وهو يكمل تجهيز الشاي..

هل هو يكذب؟

هل هو مختل؟

هل ما يقوله صحيح؟

هل جننته الوحدة؟

ظللت حائرًا إلى أن عاد إليَّ ليكمل قصته..

ارتشف رشفة طويله من الشاي الممزوج بالفأر وأطلق زفرة حارة، لفح زفيرها وجهي وكأنها ريح ساخنة وأكمل قائلًا:

- استيقظت بعدها وأنا أشعر بشعور لم أمر بمثله من قبل.. نشاط.. حيوية.. قوة.. شباب.. لا أدري.. وكأنني شخص جديد..

كأنني ولدت من جديد.. وأصبح عقلي لا يتوقف حتى وأنا نائم.. الكثير من الابتكارات والمعادلات الكيميائية التي لم تكتشف بعد..

ولكنني خشيت أن يعلم أحدهم بأمري وبما حدث، فأصبح فأرًا لتجاربهم..

قررت أن أفـــر.. أهرب.. أبتعـــد.. أذهب إلى مكان جديد لا يعرفـــني فيه أحد وأبدأ حيـــاة جديدة..

وبالفعـــل بعت كل ما أملك وبـــدأت حياة جديدة وتزوجـــت وأنجبت.. وهنا أدركت اللعنة التي أصابتني؛ فقد جعلني ذلك النيزك لا أشـــيخ.. لا أكبر.. خالد إذا شئت أن تقول!

يمر العمر على الآخرين.. يكبرون.. يشـــيخون.. يموتـــون.. وأنا كما أنا.. لا يمر علـــيَّ العمر.. كل عشر سنوات تمر عليهم، تمر عليَّ كأنها سنة واحدة..

تصور وتخيل شـــعوري عندما أرى كل من أحب من حولي يموتون، وأنا أشـــاهدهم يتساقطون أمامي وليس بيدي شيء.. أبي.. أمي.. زوجتي.. أولادي..

كنت كل فترة أسافر.. أهرب إلى مكان جديد وأدور في نفس الدائرة.. أتزوج.. أنجب.. أشاهدهم يموتون، وأستمر أنا في الحياة..

إلى أن اســـتقررت مذ زمـــن عندكم هنا في بلدكم مصـــر.. أم الدنيا كما يحلو لكـــم أن تقولوا عليها..

وكالعادة تزوجت وأنجبت وماتوا كلهم..

وفجأه دون ســـابق إنذار.. لا أعلم ما الذي حدث أو ما ســـببه.. انعكس التاثير.. أصبح جســـدي يذبل.. ينذوي.. يضعف.. يموت..

قوتي تخور.. عقلي يتوقف.. يبدو أن المفعول الذي أصابني من جراء ذلك الفطر قد بدأ ينفد..

وهنا أصابتني لعنة أخرى لكي أحافظ على نفســـي وعلى حياتى.. ذلك الاشتياق العجيب المحموم للحم البشري!

***

الخدعة

أصبحت أتجول في الشوارع وأستدرجهم إلى بيتي..

أطفال شوارع.. مجاذيب.. مرضى.. عجزة.. كل من سيكون السؤال عنهم ضربًا من الخيال..

وألتهم وجبتي باستمتاع، وأشعر بتدفق القوة إلى جسدي مرة أخرى.. نشوة عجيبة تسري في أنحاء جسدي.. كثيرين من أمثالك خدعهم مظهري وشكلي، وسيطر عليهم شعور الشفقة على ذلك العجوز المسكين..

كثيرين فعلوا مثلك.. يأتون بالطعام إلى ذلك العجوز الوحيد البائس الذي تركه أولاده لعنة الله عليهم، ليجدوا أبشع ما لم يتخيلوه في أعتى كوابيسهم..

وكلهم وقعوا في نفس الخطأ.. تصرفوا بحسن نية وبطيبة..

أتعلم أنه من وسط أغلب شعوب العالم، لم أر شعبًا بهذه السذاجة والطيبة التي قد تصل إلى حد الهبل!

وها أنت قد أتيت إليَّ، وكما أفعل مع كل منكم.. سأعطيك خمس دقائق للتفكير.. أتريد أن تنضم إليَّ في لعنتي وأدخل الفطر إلى جسدك، أم تحب أن تكون وجبة شهية لي؟

أخذت أنظر غير مصدق.. هل ما يقوله حقيقي؟

هل أنا فعلًا في بيت غول من الغيلان؟

أي مصيبة هذه، بل أي كارثة؟

كيف سأتصرف؟

ماذا سأفعل؟

أأستسلم له؟

أم أنصاع لرغبته؟ يا ويلي!

قام بعد أن ارتشف آخر رشفة من الشاي ودخل إلى الحمام..

يجب أن أفكر.. ماذا سأفعل في هذه الكارثة؟

مهلًا.. لقد قال إنه استدرجني وينتظر ليلتهمني..

يمكنني أن أهـــرب، ولكنه أغلق عليَّ من الداخل قبل ذهابه للحمام..

النوافذ كلها مغلقة بتلك الأسياخ الحديدية؛ لأنه يسكن في الطابق الأرضي..

فكر فكر فكر..

لقد قـــال إنه لم يلتهم أحدًا منذ فترة.. إذن فهو في حالـــة الضعف الآن ولن يقدر على مقاومتي كثيرًا..

ولكن هل هو فى هذه الحالة أضعف مني أم ســـيكون أقوى؟

تذكرت المثل الشـــعبي القائل: «ضربوا الأعور على عينه.. قال خســـرانة خسرانة».

إذا كنت ســـأصبح فريسة فلن أكون فريسة سهلة، فإذا لم أنجح في قتله.. ما الذي ســـيزيد؟

في كل الأحوال سأصبح وجبته..

***

الأعور

دخلت ســـريعًا إلى المطبخ؛ فأنا لا أملك من الوقت الكثير.. أخذت براد الشـــاي المغلي، ووضعت الثقاب في جيب القميص..

وأخذت أبحث سريعًا وكالمجنون عن أي شيء يصلح كسلاح..

وجدت تلك السكين.. وضعتها فى جيب البنطال..

وأمسكت بعصا المكنسة..

كانت عصًا غليظة كتلك التي يمســـكها منظفو الشوارع..

أسمع صوت السيفون وهو يشد..

تحركت سريعًا أنتظره خلف الباب..

يجب أن أعتمد على عنصر المفاجأة؛ فهو يعتقد أنني مرعوب ولا أقدر على شيء، ولكنني كما تعلمون رابط الجأش..

ها هو يفتـــح الباب ويخرج.. لـــن أعطيه الفرصة للتفكير . .

«طررررراخ»

نزلت على رأســـه بالعصا بكل مـــا أملك من القوة لدرجة أنها تهشـــمت عليها..

ارتـــج عليه الأمر وفقد توازنه للحظات وانفجر الدم من رأسه..

لكني لم أمهله.. ألقيت الماء المغلي على وجهه، فأطلق الصرخة التي أكاد أقسم أنها للعنقاء ذاتها!

نظر إليَّ والشـــرر يتطاير من عينيـــه، ولحم وجهه يتآكل من الماء المغلي ويتصاعد منه الدخان، وتنطلق منه رائحة اللحم المحترق..

ولكنه تماسك وتحرك نحوي فى سرعة.. يا الله ماذا سأفعل؟ يبدو أنه لا شيء يوقفه.. قفز عليَّ قفزة طرحني بها أرضًا، وصرخ والزبد يتساقط من شدقيه وهو يقول:

- هل كنت تعتقد أنه يمكنك مجاراتي؟

ثم أشار إلى الجرح برأسه والدم يتساقط منه وقال:

- كل هـــذا ســـينتهي.. كل الجروح ســـتلتئم.. عندما أنتهي من التهامك ســـيعيد لي لحمك قوتي من جديد..

شـــعرت أن قلبي ســـيتوقف عن العمل وأنا أتخيل ما يمكـــن أن يحدث، ثم رجوته فى صمت (قلبي) أن يصمد قليلًا لعلي أجد مخرجًا، وتذكرت الســـكين في جيبي..

حركت يدي سريعًا..

أين هي؟

اللعنـــة.. يبـــدو أنها وقعت وســـط صراعي معه.. ولكنها لن تكـــون بعيدة..

ظل يتحدث ويمجد فى نفسه وأنه سيفعل بي كذا وكـــذا، وأنا أبحث عنها حولي وهـــو فوقي يكبس علي الأنفاس..

***

الانتقام

أتذكر الطعام الذى التهمناه؟

كانت هناك سكين نقطع بها اللحم.. أين هي؟

ها هي ذي.. حمدًا لله.. أمسكها كأب يمسك والده في ذلك السوق المزدحم مخافة فقده!

يفتح العجوز فمه فأجد أسنانه كلها تتحول إلى أنياب.. فمه يتضخم وكأنه فم فرس النهر.. هل تعلم أن فرس النهر يستطيع أن يقسم ظهر التمساح لنصفين بفمه؟!

ما هذا الذي أفكر فيه؟ يبدو أنني جننت!

أقبض على السكين..

فمه يهبط.. أحرك يدي في سرعة وأغرز السكين بكل قوة فى جانبه..

يصرخ من الألم.. أغرزها مرة أخرى..

جسده يرتخي.. أغرزها مرة ثالثة..

أدفعه من فوقي على الأرض ثم أعتليه..

ينقلب الوضع.. أغرز السكين مرارًا وتكرارًا بلا توقف، وكأنني جزار يقطع اللحم..

ثم أنهيها بأن أغرزها فى عنقه ليصدر تلك الأصوات المتحشرجة التي تدل على خروج الروح..

أنزل من عليه وهو يموت أمامي..

أحاول أن أستوعب ما أراه وما حدث..

أشعر أنني على حافة الجنون..

يلفظ أنفاسه الأخيرة..

أخلع قميصي الذي تغطى بالدماء وأحمد الله أنني ألبس «تيشرت» من تحته..

البنطال؟

لا لم تصبه الكثير من الدماء..

أدخل إلى الحمام.. أغسله جيدًا.. أنتزع السكين من عنقه.. أغسلها..

أنظر إلى الشقة.. أخرج الثقاب من القميص وأشعل تلك الجذوة التي ســـتمتد سريعًا إلى باقي الغرفة التي يسكن بها..

وفي اليوم التالي يكون خـــبرًا في الجرائد عن ذلك العجوز الذي يعيش بمفرده ونســـي شيئًا ما على النار، مما جعل الغرفة تحترق بما فيها وهو بها أو ذلك الماس الكهربائي..

أيًـــا كان.. المهم أنـــني انتهيت من هـــذا الكابوس وخلصت البشـــرية منه..

أشعل الثقاب وألقيها في أنحاء متفرقة..

أفتح الباب.. أخرج مســـرعًا وأنـــا أعدو ولا ألتفت خلفي..

أقف من على بعد أراقب..

بدأ الناس في التوافد في محاولة إنقاذ فاشلة وانتهت المهمة بنجاح..

***

لعنة لا تنتهي

في تلك المنطقة النائية البعيدة كان ذلك الشاب يقف وهو لا يدري ما الذي أتى به هنا.. آخر ما يتذكره أنه كان عند ذلك العجوز المسكين ليعطيه بعض الطعام..

وأن هذا العجوز قد انقض عليه وطرحه أرضًا..

لكن لماذا يشعر بكل هذه القوة والحيوية والنشاط، وهو كما يسميه أصدقائه أكثر أهل الأرض كسلًا؟

بل السؤال الأكثر أهمية.. لماذا يشعر بهذا النهم والاشتياق لأكل اللحم البشري.. لماذا؟

***

الفصل الثالث

«ست»

- سيبدأ الحفار عمله الآن يا بشمهندس.. ألا تريد رؤيته؟

اقتلعت تلك الكلمات عيني من على خرائط الحفر وأنا أتفحصها بتمعن لأرى مـــا هي الخطوات القادمة التي سنتخذها فى الأيام القادمة..

اسمي هو «معتصم فتحي»

مهندس إنشائي..

أشارك في ذلك المشروع الضخم الذي يتم عمله في مصر بتوجيهات سيادة الرئيس «محمد حسني مبارك» في حفر وإتمام مترو الأنفاق بمنطقة «عين شمس»

الأمر متعب ومجهد بحق..

استيقاظ مبكرًا.. خرائط.. حفر.. متابعة عمال.. تفكير فيما يلي.. محاولة إنجاز الأمر في وقت أقل مما هو متوقع.. حتى وأنا في البيت.. لا هم لي ولا عمل إلا في التفكير في المشـــروع.. رغم قلة الراتب وما يعطوننا إياه؛ إلا أن المشـــاركة في هـــذا الإنجاز لهو أمر يفتخر به.. معرفه أنك ستكون ممن خفف بعض آلام الشعب المصري، وساعدت فى إعطائهم بعض المواصلات الآدمية كالدول المتقدمه، لهو أمر كفيل بالقبول بأي راتب..

- ألن تأتي يا سيدي؟

انتشلني العامل من شرودي لألتفت إليه في بطء وأقول:

- حسنًا سألحق بك بعد أن ألملم الخرائط حتى لا تتطاير من جراء الحفر.

تمت الاستعانة بحفار من أكبر حفارات العالم للعمل في مصر.. انطلقت مسرعًا خلف العامل لأشاهد هذا الحفار الأسطوري وهو يعمل.. اللعنة!

إن صوته لكفيل بصم الآذان رغم سدادات الأذن التي أعطونا إياها..

استمر الأمر لعشرات الدقائق إلى أن توقف، وأكملنا بالمعدات العادية بقية العمل..

انتهى اليوم وعدت إلى منزلي وأنا أنتظر الغد، كطفل صغير سيذهب إلى السيرك غدًا لأول مرة مع والديه.. سيهبط الحفار هذا ليحفر ممرًا كاملًا تحت الأرض.. إنه لأمر شيق.. شيق بحق..

نمت بصعوبة بالغة واستيقظت مبكرًا، وذهبت إلى الموقع والإثارة تكاد تذهب بعقلي.. بدأ توافد العمال

وجاء ذلك السائق الأجنبي الذي يعمل على الحفار ليبدأ حفر الممر..

راقبت الحفار وهو يمر ويزيل كل ما في طريقه من رمال وما شابهها من تحت الأرض.. ثم يعود محملًا بها ليرفعها فوق الأرض، لتبدأ «الأوناش» في حملها على عربات النقل ونقلها إلى مثواها الأخير!

أخيرًا انقضى اليوم وبدأ العمال في الانصراف حتى لم يتبق غيري.. هبطت في الحفرة وأخذت أتفقد الممر والأعمال المنتهية وأنا أمسك في يدي مصباحًا ينير لي الطريق.. شعرت بالرضا عمّا تم إنجازه وقررت الانصراف للراحة.. التفتُّ ناحية سلم الخروج.. لكن مهلًا.. هل هناك شيء يلمع على ضوء المصباح في ذلك المكان القصي فى آخر الممر أم أنها تخيلات؟

أدرت المصباح في نفس الاتجاه.. لم أجد شيئًا.. يبدو أنها ألاعيب عيني، أو تهيؤات من عقلي التعب..

مهلاً.. لقد رأيته مرة أخرى.. اقتربت من المكان وأخذت أدير المصباح حتى وجدت شيئًا مدفونًا في الأرض.. يظهر جزء منه على سطحها ولونه ذهبي.. أتيت بأحد معاول الحفر وضربت بكل قوتي، بعد أن

وضعت المصباح جانبًا لينير لي تلك البقعة، وقد بلغت مني الإثارة مبلغها وتسارعت دقات قلبي.. ارتطم المعول بشـــيء صلب فألقيته جانبًا وأنا أكمل الحفر بيدي، إلى أن ظهـــر ذلك الصندوق النحاســـي كما بالأفلام التجاريـــة.. أخرجته بصعوبة فهو ثقيل كالخرتيت.. تسارعت أنفاســـي وأنا ألتفت يمينًا ويســـارًا مخافة أن يكون أحد من العمـــال قد عاد، أو أحد رجال الأمن قد هبـــط يتفقد المكان.. الصنـــدوق مغلق بقفل، وواضح مـــن الكتابة عليه أنه من عصـــر الفراعنة.. أنت تعلم أن منطقة عين شمس كانت مركزًا رئيسيًا للفراعنة ومقرهـــم، بل إن عين شمس كلهـــا مبنية فوق مدينة كاملة للفراعنة.. وكلما حفر أحدهم أو حدث هبوط أرضي وجدوا بعض الآثـــار المتفرقة هنا وهناك..

أمســـكت بالمعول وهبطت بكل قوتـــي على القفل.. مرة وأخرى وأخرى حتى تحطم.. ارتعشـــت يداي وأنا أتوجـــه بهما ناحية الصنـــدوق، لأفتحه وينعكس ضوء المصباح على ما به من قطع ذهبية.. قطع ذهبية تتعدى العشرات.. يبدو أن الفرصة التي كنت أحلم بها طوال عمري قد أتت الآن.. الآن ســـأودع الفقر والذل وتلك الحاجـــة إلى ذلك المرتب الضحـــل.. تدخل ضميري

ليخبرني أنه يجب أن أبلغ الدولة بما وجدته، ليخرسه شيطاني القابع بداخلي بأنها من حقي، فأنا المسئول عن المشروع وأنا من تعب فيه، وأنا من يقوم بكل شيء، وأنا من وجدهم فهذا أبسط حق من حقوقي.. ولكن كيف سأقوم بتهريب كل هذه العملات دون أن اثير الريبة والانتباه؟

تفتق ذهني عن خطة رائعة.. حملت الصندوق كمن يحمل طفله الأول.. إنه ثقيل جدًا.. يبدو أنه مليء بأشياء أخرى وليست عملات فقط..

جررته حتى بلغت أحد الأماكن المنزوية، والتي لن يتم العمل فيها إلا بعد عدة أيام، وحفرت حفرة صغيرة ثم أهلت عليه التراب ليختفي تحتها تمامًا.. فعلت كل هذا بعد أن وضعت بعض العملات في جيوبي.. ولم أكد أتخذ طريق العودة حتى وجدت أحد رجال الأمن يهبط على السلم وهو يسألني:

- أتريد أي مساعدة يا بشمهندس؟

حمدت الله كثيرًا وأنا أقول له:

- أشكرك.. لقد انتهيت من التحضير لعمل الغد وسأذهب الآن لأحظى بالكثير من النوم استعدادًا

للغد.. اندفعت مسرعًا والنشوة تمتلكني، وقد أذهبت من جسدي كل تعب اليوم.. عدت إلى المنزل مسرعًا وأخرجت العملات وأنا أتفحصها.. يبدو أنها من الذهب فعلاً وعليها بعض الكتابات العجيبة التي لا أفهمها.. حسنًا سأكمل في الأيام القادمة استكمال نقل البقية.. أما الآن سأخلد للنوم العمييييق!

***

- لقد دنست كنزي أيها الفاني وستنال جزائك قريبًا.

اندلع ذلك الصوت العالي في الظلام.. تلفتُّ وأنا أحاول أن أعرف مصدره أو من هو فلم أجد شيئًا.. نطقت بصوت مرتجف:

- ممم ممن أنت؟

تحرك ظل أمامي وهو يقترب ببطء..

- أنا من دنست يدك النجسة كنزه وأخرجته من مكمنه، ولهذا سوف أعود قريبًا، فإما أن تكون معي، وإما أن أمزقك إرْبًا..

وفجأة اندفع مسرعًا ليخرج إلى دائرة الضوء لأرى وجهًا من أبشع الوجوه التي رأيتها في حياتي.. استيقظت وأنا أبسمل وأحوقل وأستعيذ بالله.. ما هذا الحلم؟

لم أر طوال حياتي حلمًا بهذه الدقة وهذه التفاصيل الدقيق .. لا بأس.. لا بأس.. إنه من جراء أحداث اليوم ليس أكثر.. سأعاود النوم وليكن ما يكن..

قمت من فراشي لإفراغ ما في مثانتي، وحمدت الله أنني لم أفرغها من جراء هذا الحلم البشع..

أجلس على المرحاض وأدع الباب مفتوحًا على مصراعيه.. لم أرد فتح ضوء الحمام حتى لا يذهب النوم من عيني، واعتمدت على الضوء القادم من اللمبة الصغيرة التي أتركها دائمًا لتنير المكان ما بين الحمام وغرفتي.. اللعنة!

هناك صوت شيء يتحرك بالخارج.. كيف؟

أنا أعيش وحدي هذه الايام بعد سفر والداى لبلدتنا.. إنها خطوات تسير برتابة وبطء وثقة.. حمدت الله أنني على المرحاض لأن ما حدث كان سيغرق الأرض من تحتي.. الظل يرتسم على الأرض من أمام

باب الحمام.. تبًـــا.. إنه غير آدمي! ظللت أراقب الظل وهو يقترب وأنا لا أقوى على الوقوف.. ماذا أفعل؟ أين أذهب؟

ما الحـــل؟ يقترب أكثـــر.. فجأة اختفـــى تمامًا وتوقف صوت الخطوات كأن شـــيئًا لم يكن.. ارتعدت فرائصي وأنا أقوم من مكاني وأتوجه بخطوات تتوجس خيفة خارجًا من الحمام ممسكًا بعصا ممسحة البلاط كســـلاح أواجه به ما لا أعلمه.. يجول في ذهني أبطال الأفـــلام الأمريكية وهـــم يقفزون بحـــركات بهلوانية معقدة، فاقفز مثلهم خارجًا لأنزلق في ســـجادة الحمام وتقـــع العصا على رأســـي.. ألتفت يمنة ويســـرة.. لا شـــيء.. أتحرك بحذر فى أرجاء الشـــقة.. لا شيء.. أين ذهب ما رأيت؟ هل كانـــت أوهامًا من عقلي؟ هل أصابني النعاس وأنا أجلس على المرحاض فأكملت ما كنت احلم به؟ عدت مرة أخرى إلى فراشي وأنا أضرب أخماسًـــا في أسداس.. إلى أن غرقت فى بحر الأحلام.. استيقظت مبكرًا وأنا أشـــعر بنشاط وهمة للذهاب إلى العمل ومعاودة سرقة ما وجدته من آثار.. نسيت تمامًا أحـــداث الأمس، تاركًا الأمـــر إلى عقلي الباطن الذي تكفل بجعل الأمر أضغاث أحـــلام، وتأثري بالآثار التي

وجدتها.. ظل العمل يجري على قدم وساق في الموقع؛ فنحن نريد أن ننتهي فى أقرب وقت.. انتظرت انتهاء ميعاد العمل الرسمي وأنا كلي شوق كأنني سأقابل حبيبتي التي لم أرها منذ زمن.. شعرت وكأن عقارب الساعة لا تمضي، ولم أصدق أذني عند انطلاق صافرة انتهاء العمل واندفاع العمال للخروج من الموقع.. كعادتي أمسكت بالخرائط وكأنني أتفحصها وأخط ما سأقوم به في الغد.. تركني الجميع فهم يعلمون أنني أحب أن أقضي بعض الوقت بعد ذهابهم.. انتظرت إلى أن توقفت جميع الأصوات وعم الصمت المكان.. توجهت إلى مكان إخفاء الصندوق.. أخرجته من مكانه وأخذت بعض العملات ووضعتها فى جيبي.. مهلًا ما هذا؟ هناك شيء لم أنتبه إليه بالأمس.. هناك ما يشبه الدرج في الصندوق بأسفله.. رفعت الصندوق وقربت عيني منه.. هناك بعض الرموز التي لا أعلم ما هي منقوشة على حوافه، وفي المنتصف ما يشبه يد صغيرة يفتح بها الصندوق.. ما السر وراء إخفاء هذا الدرج هنا في هذا المكان؟ يبدو أن هناك شيئًا ذا قيمة أعلى من العملات.. فتحته مسرعًا لأجد به قنينة صغيرة ذهبية اللون شكلها ولا أجمل.. رفعتها عاليًا وشعرت وكأن الموجودات من حولي قد اختفت.. كل شيء ذهب من

أمام عيـــني ولم يبق غيرها.. وكأنها تناديني وتترجاني أن آخذها.. وضعتها في جيبي وأنا أتوق إلى الذهاب إلى البيت مســـرعًا لأتفحصها جيدًا.. عدت إلى الصندوق ودفنته مكانه مسرعًا فقد تأخر الوقت وقبعت أكثر من المعتاد.. ما إن دفنته وعـــدت إلى مكتبي أمام الخرائط حتى حمدت الله؛ فقد جاء رجل من رجال الأمن ليتفقد المكان ويطمئن عليّ.. جمعـــت الأوراق والخرائط وأنا أقول له أنني كنت سأصعد لأعود إلى بيتي الآن، وأنه جاء في الوقت المناســـب ليقوم بإغلاق الأنوار وغلق الموقع.. صعـــدت وأنا أطلـــق صفيرًا من فمي وكأنه لا شـــيء هنالك.. وأخذت طريق العودة مسرعًا وأنا كلي شغف لمعرفـــة ما بهذه القنينة.. هل هو زئبق أحمر مما كان يستخدمه الفراعنة.. هل هي مادة تجعلني أكثر ذكاءً؟

أم هو ترياق الخلود الذي يبحث عنه الجميع؟!

صعدت الســـلالم قفـــزًا ودلفت إلى المنـــزل وأغلقت الباب خلفي وأنا ألهث.. أخرجت القنينة من جيبي وأنا أتفحصها وأتمحصها وأضيق عيـــني محاولًا معرفة ما بها، ثم أمسكت فوهتها وأنا أحاول فتحها.. إنها صعبة المراس، وكأنها مغلقة منذ آلاف الســـنوات.. ضحكت وأنا أقول لنفسي بالفعل إنها مغلقة منذ آلاف السنوات!

أحاول فتحهـــا بكل ما أوتيت من قـــوة.. لا أمل.. أخرجت ولاعتي وأشعلتها على الفوهة لعلي أذيب جزءًا منهـــا.. لكن يبدو أن الحرارة لا تؤثـــر بها.. تذكرت أن المعادن تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة.. أحضرت بعض قوالب الثلج وألقيت القنينة وسطها ووقفت أنتظر قليلًا.. وهنا حدث أمر أغرب مما يمكنني تخيله..اندفع دخان أزرق كثيـــف من القنينة.. دخـــان ملأ الغرفة في ثـــوان ثم أخذ يتجمع في مكان واحد، وهو يتشـــكل فى هيئه رجل.. أرأيت مشـــهد فيلم «إسماعيل ياســـين والمصباح السحري»؟

هذا أقـــرب تصور له.. تراجعت للخلف وأنا أنتفض رعبًا لأرتطم بأحد قطع الأثاث، وذلك الظل يتشـــكل إلى أن اكتمـــل ليظهر من خلفه وجه رجل من أبشـــع ما رأيـــت في حياتي.. نفس الوجه الذي رأيته في ذلك الحلم البغيض.. هل رأيت من قبل وجه الإله ست عند الفراعنة.. الذى يشبه ابن آوى.. نعم هو نفس الشكل تمامًا، فلـــك أن تتخيل كم الرعب الذي وقع في قلبي وأنا أراه أمامي متجســـدًا.. ارتجفت وأنا لا أعلم ماذا أفعل.. اكتمل التجسد ثم وقف ووجه نظراته المرعبة إلـــيَّ وهو يقول بصوت كصهيل ألف خيل:

- أأنت من أيقظني من سباتي أيها الفاني؟

إنني لما فعلت أسعد، ولم سأفعله بك أرقص طربًا!

وأطلـــق ضحكة عاليـــة أفقدتني الوعـــي لدقائق.. اســـتعدت وعيي لأجده أمام وجهي تمامًا بفمه المدبب، ينظر إليَّ منتظرًا اســـتيقاظي..

والآن..

نظراته الرهيبة مثبتة تمامًا نحوي..

لا أستطيع التحرك..

رباه.. ماذا أفعل؟

لم أصدق ما أرى.. هل أنا أهذي؟

هل أتخيل؟ هل ما أرى حقيقة؟

فركت عينى جيدًا.. إنه ما زال أمامي.. أمســـكت يدي وقرصتها بقوة..

أنا لا أحلم.. إنها حقيقة ولكنها أغرب من الخيال..

«تمتع» كما لو كان يستيقظ من غفوة دامت آلاف السنوات، وبصوت عميق وكأنما يأتي من أعمق بئر في سقر قال:

- أخيرًا أيقظني أحدهم..

ونظـــر إليَّ وأنا أكاد أمـــوت هلعًا بعينين حمراوين تشعر وكأنهما تشويان جســـمك شيًا، ثم قال:

- أأنت من أيقظني أيها الفاني؟

لم أســـتطع النطق وكأنني قد فقـــدت القدرة على التحدث.. ظللـــت أتراجع بظهري رويـــدًا رويدًا أبغي الوصول لباب الغرفة لأهرب من هذا الشيطان.. الهروب الهروب.. اســـتحوذت على الفكرة ولم أر غيرها..

وفجأة وجدته أمامي ويـــده تحيط بعنقي.. كيف اخترق الغرفـــة في طرفة عين؟! لا أدري..

لم أصدق ما أرى.. هل أنا أهذي؟

هل أتخيل؟ هل ما أرى حقيقة؟

فركت عيني جيدًا.. إنه ما زال أمامي.. أمســـكت يدي وقرصتها بقوة..

أنا لا أحلم.. إنها حقيقة، ولكنها أغرب من الخيال..

ظللت مسمرًا في مكاني لا أدري ماذا أفعل.. أأهجم عليه؟

أأفر وأهرب بجلدي وأترك أهلي فريسة له؟

ظلت الأفكار تتصارع برأسي إلى أن أدار عينيه نحوي.. اللعنة! أي عيون تلك؟ إنهما حمراوان بلون الدم، تشعر وكان الدماء تتساقط منها..

تحرك فاه ليخرج صوته وكأنه صهيل ألف خيل وهو يقول:

- المجد لـ«أمحتب».. المجد لـ«ست».

أي جنون هذا الذي أقحمت نفسي به؟

ثم اقترب بخطوات بطيئة متثاقلة واثقة وأنا ما زلت على وضعي السابق، وكأنما تحولت مقعدتي إلى جزء من بلاط الأرضية..

وقف على بعد خطوة مني ثم انحنى وأمسك بيدي ليوقفني وقال بصوته العجيب:

- المجد لمن أخرجني من السجن الذي حبسني فيه «حورس».

وضع يده على عقلي.. شعرت وكأن تيارًا كهربائيًا يسري من عقلي إلى يده، وأخذت تعرض أمامي كل العلوم التي تعلمتها والدراسات التي درستها..

بل وكل ما قرأته في حياتي من مجلات.. روايات.. كوميكس.. تاريخ.. وكأنما يســـرق من عقلي كل المعلومات..

ظل الوضع ما يقرب من خمس دقائق، ثم انتزع يده من على عقلى فوقعت أرضًـــا وكأنني صرصور انتهى عنكبوت من امتصاصه..

ثم بصوته الذي لم أسمع مثله قال:

- لقد علمت من عقلك كل شـــيء وعرفت أين أنا، وإنني لأشفق على أهل بلدتك مما سأفعله بهم.. ولكن أنت أيها الوغد الحقير سأتركك لأنك من أخرجني من سجني

(وغد حقير؟ ده أنا هوريك أيام سودة!)

ثم انطلـــق يطلق تلـــك الضحكات الشـــيطانية الشنيعة.. أخذ عقلي يفكر سريعًا في كيفية التخلص من ذلـــك الكابوس الذي أخرجته للحياة، وهو يتجول في أرجـــاء الغرفة ويقول لي:

- إنك لا تعرف كم من السنون انتظرت.. كم من الأعوام مرت وأنا أنتظر تلك اللحظة التي سيأتي فيها ذلك الغر الساذج الذي سيعيدني للحياة

(غر ساذج؟!)

لقد امتصصت مـــن عقلك كل شـــيء.. لغتكم أفكاركـــم.. أحلامكم، وكل ما رأيتـــه ومررت به وما تعلمته ودرســـته وقرأت..

ظـــل يحكي ويتحـــدث ويتفاخر وأنا أفكـــر.. وهنا تذكـــرت أن القنينة بجانبي.. لعل بهـــا ما يفيدني..

أمسكتها وذلك الشيطان ما زال يتحدث عن نفسه وعن أمجاده في الماضي، وهنا وقعت عيناي على المكتوب على القنينة بخط صغير.. إنه باللغة الهيروغليفية..

ولكن مهلاً.. إنني أستطيع قراءته كما لو أنني أقرأ اللغة العربية!

يبدو أن عملية ســـرقة المعلومـــات كان لها بعض النتائج العكسية جعلتني أتعلم منه اللغة الهيروغلفية.. فلأقرأ المكتوب عليها وهو مازال يتفاخر بنفســـه..

مكتوب عليها:

«إلى مـــن يجد تلك القنينـــة، فلتعلم أن بها الهول ذاته.. والويل الويل إذا خرج؛ فلا تعبث بها.. وإن حدث، فيجب عليك أن... (كلام غير واضح)

ثم تجد مصدرًا عاليًا للحرارة مع إشعال النار وغمر بالماء معًا.. ثم تلاوة تلك الكلمات..(يبدو أنها تعويذة من تلك التعاويذ التي تذخر بها الحضارة الفرعونية)»

من الواضح أن هذه طريقة التخلص منه وإرجاعه إلى حالته الأولى.. ولكن كيف سأنفذ ما فيها؟ يجب أن أعمل سريعًا فلن يستمر هنا طيلة العمر، وسيذهب ليعيث في الأرض الفساد..

قطع عليَّ حبل أفكاري وهو يقول:

- هل ستكون معي أيها البشري، ام أنك ستكون من الفانين؟

من الواضح أنه كان يتحدث عما سيفعله..

أجبت مسرعًا:

- أكيد معك.. لكن دعني أفكر قليلًا؛ فما حدث وما تقول وما مررت به في الدقائق الماضية، يفوق مستوى العقل..

تركني وأخذ ينظر إلى الكتب التي أضعها على الأرفف.. وهنا تبلورت الفكرة في ذهني.. تحركت في

بطء ناحية جهاز الكمبيوتر، ثم تعثرت قاصدًا وأمسكت بالقابـــس وأخرجته من الكهرباء..

لم يلق لي بالًا وهـــو يتصفح الكتب.. يبدو أنه نهم للمعرفة.. يريد أن يملأ عقله بكل ما يقع تحت يده..

ثم أمسكت الســـلك و«عريته».. وجعلت الطرفين جاهزين للكهرباء، ثم أمســـكته بحذر وأرجعت القابس إلى الكهرباء وتركت الســـلك أرضًا..

هنا تحدثت معه وهو يعطيني ظهره حتى لا يشـــك في، عن عائلتي وما ســـيحل بهم، وأنا أتحرك لأمســـك ذلك التمثال الثقيل الذي يصر والدي على الاحتفاظ به.. تمثال بشـــع ثقيـــل لفيل يتظاهـــر بكونه حيوان الباندا!

وأنا أحاول أن أتحـــدث في أي أحاديث .. ينقصني فقط النار ..

لقد وضعت القداحة هنا في مكان ما.. أين هي؟

تبًا إنها بجواره..

ذهبت بهدوء لآخذها.. أمد يدي..

فجأة امتدت يده وأمسكت بيدي..

وهو يقول:

- ليس لدي الكثير من الوقت لأضيعه أيها الفاني.. كل مـــا يصبرني عليـــك أنك كنت الوســـيلة التي خرجت بها من سجني.. ولن أصبر كثيرًا.. فلتخبرني أمعي أنت أم لا؟

انتفض جسدي وقلت له:

- دعني آخذ القداحة لأشـــعل ســـيجارة.. وعندما أنتهي سأخبرك..

ترك يدي وكأن شيئًا لم يكن ثم أكمل القراءة..

تحركـــت للخلف عائـــدًا إلى مكاني الســـابق وأنا أتحاشى لمس ســـلك الكهرباء.. وأخذت الوضع الذي أعددته لنفســـي ووقفت على الكرســـي البلاستيكي..

وبكل قوتـــي ألقيت التمثال على حوض الســـمك الكبير الذي يستقر بجوار الحائط بين سِت والكهرباء..

التفت غاضبًا إليَّ ولكن هيهات.. انتشـــرت الكهرباء سريعًا في الماء إلى أن طالته وأمسكت به..

ارتج قليلًا ولكنه تحرك ناحيتي وجسده يصدر تلك الفرقعات الكهربائية الاستاتيكية العالية..

ولكـــن يبدو أنها لا تؤثر التاثـــير الكافي.. يجب أن أتصرف سريعًا قبل أن يصل إليَّ أو انقطاع التيار أيهما أسرع..

ثم أشـــعلت ذلك الكتاب بجواري بالقداحة وقذفته عليه بكل قوة.. هل سأصيب الهدف؟

اللعنة لقد أخطئته..

لم أجد بدًا فخلعت قميصي وأشعلت فيه النار..

يتقدم بتلك الخطـــوات البطيئة.. من الواضح أن الكهرباء تعيقه.. ألقيته عليه بقوه.. بعنف.. بخوف.. برجاء.. بأمل..

حمدًا لله.. سقط على رأسه الشبيه بابن آوى..

أطلق تلك الصرخة الهادرة وأنا أدعو الله أن أكون قد فعلت كما كان مكتوبا..

ظل يصرخ..

ويصرخ..

ويصرخ..

حتى شعرت أنني سأصاب بالصمم..

تلوت تلك التعويذة المكتوبـــة على القنينة بصوت هـــادر حاولت أن أجعله يتفـــوق على صوت صراخه..

فجأة حدث انفجار محـــدود في فراغ الغرفة وتحول ست إلى دخان أســـود عاد مرة أخرى إلى القنينة..

وانقطع في هذا الوقت التيار الكهربائي

فقفزت مسرعًا وأمســـكت بالغطاء وأغلقت القنينة جيدًا وأنا ألهث.. ودقات قلبي تتسارع لدرجة أنني ظننت أنه سيخرج ويجري حول الغرفة قليلًا..

في اليـــوم التالي ذهبت إلى تلك الصحراء وأنا معي ذلك المعول.. وأخذت أحفر وأحفر حتى تركت تلك القنينة، وأهلـــت عليها التراب وأنا أدعـــو الله أن يكون الأمر قد انتهى..

***

بعد أسبوع في تلك الصحراء القاحلة كانت تلك القافلة تســـير، إلى أن توقف الكلب الحارس وهو يعوي وأخذ يحفر بيده بسرعة غريبة

اقترب منه صاحبه وفهم أن كلبه يفتش عن شـــيء ما.. أخذ يساعده في الحفر إلى أن أخرج تلك القنينة الذهبية ذات الشكل الغريب..

أخذ يهزها.. مهلاً هناك شـــيء بداخلها.. فتحها، فحدث ذلـــك الانفجار، واندفع ذلـــك الدخان الذي تشـــكل في صورة غريبة وهو يقول:

- ســـأنتقم منك أيها الفاني الذي حبسني، وبعدها ستبدأ خطتي..

أخذ الرجـــل ينظر إليه في هلع ثم اســـتدار وأطلق ساقيه للرياح..

ولكن ليس لنا دخل بما يحدث فهو يحدث بعيدًا عنا!

***

الساحر

- ستعمل الخدمة خلال ساعتين من الآن يا سيدي..

- أشكرك.. لقد أتعبتك كثيرًا..

- تحت أمرك يا أفندم.

قلتها وأنا أغلق باب الشقة خلفي وأقفز على السلالم في سرعة، متوجهًا ناحية عربتي الصغيرة التي تعمل يومًا وتعطل أيامًا، لكنها كما يقولون: «حمارتك العرجاء تغنيك عن سؤال الغريب».

أعمل فني تركيبات إنترنت في إحدى شركات الاتصالات، الكبرى اسمًا، الصغرى في معاملة موظفيها.. من يعلم أنني أعمل بها يظن أنني امسك السماء بيدي والنقود تتساقط من يدي.. ولا يعلم أنني أكمل باقي الشهر بالسلف والدين.. أدرت محرك

السيارة عدة مرات حتى استجاب بعد المحاولة العاشرة، لينطلق صوته كانفجار صغير في تلك البقعة النائية من التجمع الخامس التي لم يصل إليها العمران بعد.. عمارات كثيرة متناثرة هنا وهناك ولكن بلا سكان.. يسكن بها القطط والكلاب، وبالتأكيد بعض الجان؛ فلن يجدوا مكانًا أفضل من ذلك للسكن.. هدوء وصمت بعيدًا عن أولئك البشر الأوغاد.. اللعنة.. هذه هي مشكلتي دائمًا.. مثانتي تكاد تنفجر؛ خاصة بعد أن شربت ذلك المشروب عند العميل.. أستحي دائمًا من طلب دخول الحمام عند أحد العملاء، وأذهب إلى مسجد قريب لـ«أفضيها» به.. ولكن هذه المنطقة الملعونة.. أظن أنه لا مسجد بها.. ما الحل؟ إن لم أتخلص مما بها ستنفجر في السيارة.. أسرع قليلًا وعيني تتجول بين الأنحاء لعلي أجد أي مكان يمكن أن أفعلها به..

طرااااخ!

اللعنة لقد ارتطمت بشيء ما.. أوقف السيارة وأهبط منها لأجد ذلك الكلب الأسود الذي يرقد بلا حراك.. حسنًا هذا ما كان ينقص.. أنظر حولي.. لا أحد في ذلك المكان الخرب..

حمدًا لله.. هناك ما يشبه المسجد على الجانب الآخر.. أترك السيارة وأغلقها جيدًا.. تسألني لمَ لمْ أقف بجوار أي حائط وأفعلها؟ ليس هذا من طبعي.. أستحي أن يراني أحد أو يأتي أحد الكلاب الضالة وأنا في هذه الوضعية التي لا أستطيع أن أتحرك معها ليتنهز الفرصة و... (إحم إحم).. أنت تعلم ما سيفعله.

هرعت إلى المبنى الشبيه بالمسجد وأنا أتماسك بصعوبة بالغة.. إنه ليس بمسجد رغم قبته وشكل المبنى.. لا يهم.. بالتأكيد هناك حمام بالداخل.. مبنى مخيف بحق.. يبدو أنه مهجور منذ عشرات السنوات.. مظهره وطريقة بنائه توضح أنه مختلف تمامًا عن باقي المنطقة.. لا أعلم كيف ولكنه كان قديمًا.. قديمًا بحق.. طرقت الباب بقوة لأجده مفتوحًا من الأصل.. دخلت وأنا أتوجس خيفة وقلبي يطرق صدري، كعامل نشط يحطم حائطًا بمطرقته.. تبًا.. الظلام غير طبيعي.. كأنما قنبلة ظلام انفجرت في المكان.. أخرجت هاتفي المحمول وأشعلت مصباح الإضاءة به ليذهب بعضًا من ظلمة المكان.. يعطيني بعضا من الطمأنينة.. أبحث عن أي مكان يصلح كحمام، كأم تبحث عن ابنها التائه في لهفة.. تصميم

المبنى من الداخل عجيب.. صالة كبيرة واسعة جدًا بها عدة غرف مغلقة.. هناك دور ثانٍ ولكنني لست في حالة تسمح بأن أتفحصه، ومن المنطقي أن يكون هناك حمام بالأسفل.. هناك باب على آخر الطرقة اليسرى.. أفتحه متعجلًا لأجد أمامي صفًا من الحمامات بجانب بعضها.. حمامات بلدي كما يسمونها.. فليكن.. المهم أنها ستنقذ مثانتي المسكينة.. أجلس وضع القرفصاء لأفرغ ما بها فقد احتملت بما يكفي.. أشعر براحة غير عادية بخروج السائل الدافئ من جسدي.. مهلًا.. هل تسمع معي هذا؟ هناك صوت خطوات تقترب من على بعد.. تمشي بهدوء وثقة كأنما تعلم إلى أين هي ذاهبة جيدًا.. الصوت يتصاعد.. إنها تقترب.. لمن هي؟ لم يكن هناك أي أحد بالجوار في ذلك المكان المقفر..

وكأنما غارت أمعائي من مثانتي فقررت أن تمارس عملها هي الأخرى، أو هو الخوف والفزع.. ألمح من تحت الباب -فالباب لا يصل إلى آخر الأرض كديدن تلك الأبواب القديمة- ظلًا يسير من أمامي، أراه على ضوء الهاتف الضئيل.. الهاتف الأحمق الذي أعطاني الإشارة بقرب انتهاء شحنه، وكأنما هذا ما كان ينقص.. ارتعدت فرائصي وأنا أقول بصوت مرتجف:

- مممممن هنننناك؟ منننننن أنننتتتتت؟

لم يجبني ســـوى صوت الخطوات وهـــي تغدو وتعدو بهدوء كاد أن يدمر أعصابي كلية.. انتهيت من إفارغ كل ما بداخلي لتنطلق دقات قلبي بعنف.. ماذا أفعل الآن؟

أأخرج أم أظل في مكاني.. هل هو لص؟

ماذا ينتظر ويهاجمني؛ فأنا في وضعية لا تســـمح لي بالمقاومة بتاتًا.. فجـــأة أخذت الخطوات في الابتعاد.. حتى صمتت تمامًا.. أمســـكت بخرطوم الماء بجانبي.. أنظف نفسي وأرفع ملابسي في سرعة.. وقفت متحفزًا وأنا أطرق الســـمع.. حسنًا لا شـــيء هناك.. فتحت الباب بتوتر قط يتســـلل ليسرق قطعة من اللحم.. لا أحد هناك؟ لن أضيع وقتي فلن يكون ما يكون، سأستقل سيارتي وأنطلق هاربًا من هذا المكان.. دلفت إلى الطرقة الطويلة، ليفعلها ذلك الهاتف الأحمق وينهي شـــحنه تمامًا وأغرق في ظلام تـــام.. لم تفوت تلك الخطوات الفرصـــة وعادت مرة أخرى وأنـــا لا أعلم من أي اتجاه تأتي.. حمدت الله أنني أفرغت مثانتي منذ قليل.. اخترق الظلام ضوء ســـيارة تعبر بالخـــارج، لأرى على ضوئها الطريق أمامي.. لم أتوان وانطلقت أعدو بأقصى سرعة

ناحية باب الخروج قبل أن تنقشع الأضواء.. ولكن قبل أن أصل بعدة أمتار ابتعدَت وســـاد الظلام من جديد.. شـــعرت وقتها بثقل رهيب على صـــدري، كأنما وضع أحدهم أثقالًا عليه.. طنين يشق رأسي نصفين.. رغبة في النوم غير عادية.. أنفاس ثقيلة خلفي وكأنما أحد الثيران الهائجة يطلقها من منخريه.. اللعنة، ما الذي يحـــدث؟ أحاول أن أحرك أقدامـــي.. تنميل غير عادي بهما.. لا أقدر على رفعهما.. أحاول أن أقرأ بعض آيات القرآن.. لساني لا يتحرك.. ما الذي يحدث؟ يبدو أنني في حضرة أحد الجان.. ما الحل؟ كيف ســـأتصرف؟

ســـيطرت على عقلي فكرة واحدة.. يجب أن أقرأ آية الكرســـي والمعوذتين.. حاولت وحاولت وحاولت، حتى اندفع العرق من كل مكان، ولكن محاولتي نجحت وبدأ لساني في التحرك.. في البدء كطفل يتهجى الحروف، ثم زادت السرعة وتحرك لســـاني بصوت عال واندفعت أتلو القرآن وكل ما أحفظه، حتى تحررت أقدامي وعاد جســـدي ليعمل بصورته الطبيعية.. لم أكذب خبرًا.. اتجهت لمكان الباب الذي أتذكره.. تحسســـت طريقي وأنا أعدو.. ارتطم بشيء ما.. أتعثر.. أسقط.. أقف.. أجري.. أبكي.. أصرخ.. أنوح.. أصل إلى الباب.. أفتحه

وأنا أنطق الشـــهادتين.. يرتطم الهواء المنعش بوجهي يعيد إليَّ بعضًا من الحياة.. ســـيارتي تقبع بمكانها.. أعدو نحوها.. أقتحمها.. ألقي بنفسي بداخلها.. ثقل صدرى يعود.. تبًا، لقد توقفت عن التلاوة..

أديرها فتدور من أول مرة على غير العادة.. يبدو أنها خائفة أكثر مني.. أنطلق بها لا ألوي على شـــيء وأنا أتنفس الصعداء على هروبي من ذلك المكان الملعون.. أخـــيرًا أصل إلى بيتي.. أصعد الســـلم بأرجل مرتجفة وعقلي لا يتوقف عن التســـاؤل.. مـــا الذي حدث؟.. ما كل هذا الذي مررت بـــه؟ أي تجربة، أي مصيبة.. فتحت الباب ودخلت شـــقتي لتهـــرع ابنتي نحوي فرحًا بقدومي.. اندفاعهـــا نحوي وهى تنادي باسمي وتلقي بنفســـها في أحضاني أنســـاني كثيرًا مما حدث، وأنا أحتضنها في لهفة وأقبلهـــا في كل مكان.. أحمد الله على عودتي لها ســـالمًا؛ فقد ظننت لوهلة أن نهايتي فى ذلك المكان.. أتت زوجتي من خلفها لتلاحظ شـــحوب وجهي وتسألنى ما بي.. أجيبها بأنه فقط إرهاق وتعب من ذلك العمل الذي لا أطيقه.. تقبلت الكلام وهي لا تصدق ما أقول.. تركتها مســـرعًا إلى الحمام لأنظف نفسي من عناء اليوم..

أغلقت الباب.. فتحت صنبور الماء ليغرق جسدي وأنا أقف أسفله وأتأمل، منتشيًا سعيدًا بكم القاذورات الذي يتساقط من جسدي بعد هذا اليوم الطويل.. أغمضت عيني قليلًا وعقلي ما زال يتذكر ما حدث.. أفقت على صوت الخطوات إياها خلف ستارة حوض الاستحمام.. ارتعدت شـــفتاي واصطكت أســـناني ببعضها.. توقفت الخطوات فأزحت الستار في سرعة.. حمدًا لله.. لا شيء هناك.. يبدو أن ذهني لم يصف بعد، وأنها مجرد تهيؤات وتبعيات لما مررت به.. أتناول عشائي في صمت وزوجتي في غرفة ابني وهو يتأهب للنـــوم.. تتركه وتدخل إلى غرفتنا بعد أن ألقت إلـــيَّ نظرة صامتة.. هي تعلم أن هناك أمر ما يشـــغلني، وتعلم كالعادة أنني لن أحكيه كي لا أثقل عليهـــا.. كيف أحكي لها ما حدث؟ إنها لن تنام إذا عرفت ما مررت به.. أنهي طعامي وألحق بها لأغط في نوم عميق.. ليأتي ذلك الكائن الذي لا تضح ملامحه في الحلم وهو يقول بصوت قوي عميق يأتي من أحد آبار جهنم:

- لقد أتيت إلينا بنفسك، مقبل غير مدبر، ودنست مقامنـــا ومكاننا.. لقد انتظرناك دهورًا، وها قد حانت اللحظة.. لحظة النهاية والعودة..

واقترب مني وهو يضحك بصـــوت جمد الدماء في عروقي، لأرى أبشع وجه رأيته في حياتي.. إن إبليس الذي نراه في الصور القديمة لأشد جمالاً منه.. أستيقظ في عنف وأنا أســـتعيذ بالله.. أتناول الماء من جوار الفراش وأجرعه كالإسفنجة.. ألتقط أنفاسي بصعوبة، وأنظر إلى زوجتي التي تغط في نوم عميـــق وتطلق أصواتًا من فمهـــا دلالة على الاســـتغراق في النـــوم.. لألمح ذلك الظل الذي عبر أمام غرفتنا في ســـرعة خاطفة ليغطي على مصباح الإنارة ثم يعود مرة أخرى.. تســـمرت على فراشي وأنا أفكر.. ما قد يكون؟

سمعت صـــوت ابنتي.. أضحـــك في خفوت.. لقد أرعبتني تلك الصغيرة.. أقوم من مكاني لأرى ما الذي يؤرقها..أقترب من غرفتها متســـللاً لأفزعها.. تبًا ما هذا؟ هناك صوت أحد يتحدث.. إنها ابنتي تتحدث مع أحدهم.. ولكنني لا أسمع صوت الآخر.. أقترب أكثر لأصغي الســـمع.. لا أتبين ما يقول.. أقف خلف الباب لتتوقف ابنتي عن الكلام.. ادخل بهدوء لأجدها نائمَة على فراشـــها أقترب لأهزها.. إنه في عالم الأحلام.. كيف؟ هل تتحدث وهي نائمة ؟

لكنه لم يفعلها من قبل.. أتركه لأفرغ مثانتي مرة أخرى.. تلك المثانة الـــتي لولاها لما حدث ما حدث.. اللعنه عليها.. أعود مرة أخرى إلى النوم قبل أن يتطاير من عيوني.. أنزلق في نوم عميق لما يقرب من ساعتين.. نـــوم خاوٍ بلا أحلام أســـتيقظ منه علـــى ألم رهيب في معدتي.. أمسكها بيدي وأذهب لتعاطي أي دواء يوقف تلـــك التقلصات الغير عاديـــة.. .. أدلف إلى الحمام لمحاولة إفراغها من العشـــاء الدسم الذي تناولته.. لا أفتح الضـــوء حتى لا يجافي النوم عيوني.. أجلس وأنا أدفع بكل قوة كامراة حامل تضع وليدها.. ليمر ذلك الظـــل اللعين مرة أخرى بالخـــارج .. أجفلت وهو يمر عدة مرات من أمامى .. أقشعر حسدى وتوقفت شعيرات ساعدي .. طرقات اندلعت فجأه على الارض .. الظل يقترب من الباب ليقتحم ذلك الكائن البشع الذى رايته من قبل لتنطلق من الصرخات وانا انتفض مســـتيقظا لتربت زوجتى علـــى كتفى وهو تناولنـــى كوبا من الماء .. انظر اليها فى دهشـــه لادرك اننى حلمت حلما مزدوجا ابســـمل واحوقل واطمئنها انه مجرد كابوس لتكمـــل نومها ..وانا افكر فى ذلك الكابوس .. اللعنة جســـدي.. يئن.. اللعنة.. ألم بطني يعود مرة أخرى.. لقد نسيت أن آخذ أي دواء.. أنهض من الفراش.. أضع

قدمي على الأرض.. لا أقوى على الوقوف.. أشعر بثقل غير عادي.. أنهض متثاقلًا.. أتجه إلى الحمام.. عقلي مشوش.. رأسي كقطعة ضخمة من الحديد.. أجلس لأفرغ مثانتي لعلها تزيـــح قليلًا من آلام المعدة.. أنظر إلى الأرض وأنـــا جالس على مقعد الحمام.. ما هذا؟

هناك ظل يرتمـــي على الأرض أمامـــي.. من أين جاء.. من هو؟

أرفع رأسي مسرعًا.. لا شيء أمامي.. هل أنا أتخيل؟ شردت أفكر في ذلك الكابوس.. أتذكر تفاصيله.. لا لا ليس هناك كابوس بكل هذه الدقة التي رأيتها.. هل هي رؤية؟

تبًا ما هذا؟

إنه صـــوت خطوات قادمة من على بعد .. شـــعرت بشـــعيرات جســـدي كلها تنصب .. خطوات ثقيلة .. ثابتة .. حانقة.. ولا تسألني كيف عرفت انها حانقة!

ظـــل يمر أمام باب الحمام الـــذي لم يعد موجودًا.. أنظر بتركيز.. لا أرى شـــيئًا.. الظلام دامس بالخارج رغـــم وجـــود ذلك المصبـــاح «الســـهاري» في آخر ممر الغرف.. الخطوات تبعد وتبعد بنفس الوتيرة.. تدفق

ماء ســـاخن مني فحمدت الله أنني مـــا زلت على مقعد الحمام وإلا أغرق ملابسي؛ رغم أنني أفرغت مثانتي منذ دقائق.. الخطوات تقترب مـــن غرفة ابنتي.. اللعنة.. قمت مســـرعًا وأنا أرتدي ملابسي وأعدو بكل قوة.. لم يعـــد للخوف مكان في قلبي.. إنها ابنتي فلذة كبدي.. ما إن خرجت حتى توقفت الخطوات.. تسللت في حذر إلى غرفتها.. أسمع صوت همهمة وهمســـات من خلف الباب.. أضع أذني عليه.. صوت ابنتى تتحدث مع أحد ولكنـــني لا أسمعه جيدًا.. أضع يـــدي على المقبض.. أديـــره في بـــطء.. أفتح فجأة لأجد ابنـــتي نائمة على فراشـــها.. أقترب منها.. أنحني عليها لأقبلها.. تبًا.. إن عينيها مفتوحتـــان على مصراعيهما تنظران إليّ.. أرتد إلى الخلف..

- حبيبتي أمستيقظة أنت؟

لا رد.. إنها نائمة.. لكن كيف؟

أقبللهـــا.. أوقظها.. لا جـــدوى.. غارقة في النوم تمامًا.. أغلق عينيها بيدي.. أتركها وأعود لفراشي.. لكن ما هذا الذي رأيته وسمعته؟ هل هو بســـبب تعب اليوم وذلك الكابوس الملعون؟

استعذت بالله ودلفت إلى فراشي .. حاولت النوم ولكن هيهات .. لقد فات الأوان .. أتقلب يمينًا ويسارًا.. يقترب مني النوم في تؤدة .. أفتح له ذراعي مرحبًا.. يخترق الصمت تلك الخطوات .. خطوات ثقيلة ثابتة .. وحانقة!

انفلت النوم من ذراعي وهرب مسرعًا .. الظل يعبر مرة أخرى وثالثة ورابعة .. أما من نهاية لتلك الليلة بأحداثها الملعونة .. أأخرج لأرى .. أم اتناسى وأحاول النوم؟

ولكن ابنتي .. كانت تلك هي الكلمة السحرية.. خرجت مسرعًا بحذر لتتوقف الخطوات، لكن هناك ذلك الظل الذي يسير بالخارج .. تتسارع دقات قلبي.. تضطرب أنفاسي .. أرى الظل يبتعد .. يجب أن أعلم ما هو .. أتتبعه مسرعًا.. يا للسماء .. إنها ابنتي.. تسير وعيناها جاحظتين ويداها ممدودتين أمامها، وتصدر تلك الأصوات التي سمعتها في الحلم .. أقترب منها.. أوقظها.. ولكنها ليست هنا.. إنها في عالم آخر..

***

٢ - المسجد

أنادي عليهـــا.. أهزها برفق.. أهزهـــا بعنف.. لا شـــيء.. يرتفع صوتـــي باسمها.. تســـتيقظ زوجتي وتسألني ما بها.. أخبرها بما حدث.. ترتد مصعوقة.. ناخذ ابنتي للفراش.. تغط في نوم عميق بعد أن أغلقت عينيها.. نجلس على الفـــراش أنا وزوجتي أراجع معها أحداث اليوم.. كل ما حدث.. حدث بعد ذهابي لدورة المياه بذلك المســـجد القديم المهجور.. حسنًا سأذهب إليه محاولًا فهم ما حـــدث ولمَ يحدث.. انتفضنا على صرخة عاتيـــة من غرفة ابنتي.. نعدو كما لو كنا في ســـباق المائة متر.. نجدها تجلس علـــى الفراش وهي تصرخ:

- موافقة موافقة..

ثم تقع علـــى الفراش مرة أخرى مغشـــيًا عليها.. ننظر إلى بعضنا والخوف ينهشـــنا كأسد ينهش غزالًا لا حول له ولا قوة.. يجب أن أعود إلى ذلك المسجد.. يجب..

نعـــود إلى غرفتها وكأن أقدامنـــا ملئت بالإسمنت نجرها خلفنا جرًا.. أطمئن زوجتي أن كل شيء سيكون على ما يرام بصوت أخافني أنا شـــخصيًا وأوضحت لي نبراته كم أنا كاذب.. لا أعلم كيف غططت في النوم ولكنني قمـــت في اليوم التالي كما لـــو كنت جنديًا صينيًا شارك في بناء سور الصين العظيم.. كل عضلة تئـــن.. كل عظمة تصرخ.. دخلـــت الحمام وارتديت ملابســـي في عجالة.. دلفت إلى ابنـــتي.. لا تنطق ولا تستيقظ.. من الواضح أنها غيبوبة ولا أحتاج إلى كثير من الذكاء لأدرك ان الطب لن يكون له يد المساعدة.. ركبت سيارتي الصغيرة وانطلقت أشق الشوارع شقًا.. حتى وصلت إلى تلك المنطقة الفاخرة الفارهة.. جبت الشوارع حتى وجدت المسجد، ولكنه اختلف كثيرًا عما رأيته من قبل.. محترق تمامًا.. متداعٍ.. متهدم..

درت حوله دورة كاملة.. ثم تركت السيارة ودخلت إليـــه.. مقبض مقفـــر.. لا أعلم كيـــف يكون هناك مســـجد مقبض هكذا.. أبحث هنا وهناك عن ماذا؟

لا أعلم.. أتفقد المكان.. أدخل إلى ســـاحته.. أوراق محترقة.. ســـجاد مهترئ.. الجـــدران تحمل كلامًا بالعربيـــة ولكنه غير مترابط.. رمـــوز عجيبة.. تبًا ما هذا المكان؟

كومة من الكتب ملقاة على جانب.. أتجه نحوها.. أرفعها.. تقفز تلك القطة في وجهي لأنتفض للخلف وأســـقط على ظهري.. لعنة الله عليك أيها القط.. أعود أدراجي.. أمســـك ببعض الكتب لأتصفحها.. لا شك أنها كتب سحر!

أتنقل بين ذلك الكتاب وذاك.. أي شيطان كان في هذا المكان.. أكمل البحث في باقي المكان.. دماء على الأرض.. بقايا مبخرة كبيرة متفحمة.. مهلًا ما هذا الصوت؟

إنهـــا خطوات مرة أخرى، ولكـــن معها صوت آخر.. تقترب ببـــطء.. تقترب بثقة.. تقـــترب بانتظام.. ما الذي أقحمت نفســـي فيه؟

ماذا أفعل.. سأختبئ.. هرعت نحو كومة من الأخشاب على جانب المكان واختبئت خلفها.. يقترب الصوت.. تتضح معالمه.. إنه عجوز يسير بعكاز خشبي.. إذن هو صاحب الصوت الذي سمعته.. يقف مناديًا.. أين أنت أيها الغريب؟

لا تخف.. أنا لا أريد بك أذى.. يبدو من هيئته أنه رجل طيب وعجوز لا يقوى على شيء.. خرجت من مكاني قائلًا:

- ها أنا ذا يا أبتِ..

تبسم في تبسط وهو يقول:

- لا تخش شيئًا.. إني لا أضمر لك شرًا.. لقد شاهدتك من على بعد وأنت تدخل هنا فأتيت لأسألك عما تريد.. أولًا دعني أعرفك بنفسي.. أنا حارس الأرض التي بجوار المبنى.. أعيش في هذا المكان منذ أكثر من ستين عامًا..

أصدرت صفيرًا متعجبًا من شفتي، ثم سألته عن حقيقة هذا المسجد.. ضحك قائلًا:

- الكثيرون يظنون أنه مسجد لشكله الإسلامي الشبيه بالمسجد، ولكنه ليس كذلك؛ فهو منزل كان

يســـكنه أحد الأثرياء في القرن الماضـــي .. ومن حبه للمساجد ولطبيعة عمله بناه على هذه الهيئة، حتى أنه أقام دورة مياه على غرار التي بالمســـاجد .. لكثرة زواره ومريديه ..

رددت بتعجب:

- مريديه؟!

نظر إليَّ طويلًا ثم سألني:

- أخبرني.. ما الذي جاء بك هنا؟

طال صمتي وأنا أتساءل بداخلي.. أأخبره أم لا؟

أجابـــني عقلي بأنني جئت هنا للبحث عن إجابات.. حســـنًا سأخبره.. حكيت له كل ما مررت به وما حدث لابنتي ثم ســـاد الصمت المـــكان.. احترمت صمته فقد اعتقدت أنه يظنني مخبولًا أو كاذبًا، ثم فتح فيه قائلًا:

- سأخبرك بقصة هذا المكان وما حدث لك، لكن لا تقاطعني.

أومئت برأسي.. وبدأ يحكي

***

٣ - الساحر

- منذ أكثر من مائة عام كان يسكن هذه الأرض العرب أو البدو كما يقولون.. أقاموا بيوتهم وحياتهم وتعايشوا، حتى جاء رجل غني ثري إلى أقصى حد.. وطلب منهم العيش معهم مقابل مبلغ مالي كبير وعدد من الغنم.. رحبوا به وبما أعطاه لهم، ثم بدأ في بناء داره على شكل مسجد وعلى الهيئة التي تراها.. استقر فيها وتوسم أهل البدو فيه خيرًا.. جلس معهم لسنوات لم يروا منه إلا ما يسرهم.. وكان دائمًا ما يقيم الولائم ويدعو أهل القرية كلهم.. حتى أنه أقام حمامات ملحقة بالدار لخدمة المترددين على الدار ولأهل القرية.. ولكن في يوم من الأيام تغير الحال وأصبح كثير البقاء منفردًا.. حتى في ليالي الاحتفالات التي كان يشاركهم فيها لم يعد يحضرها.. كثيرًا ما

سمعوا ليلًا صرخات تنطلـــق من داخل منزله.. وعند اقترابهم تصمـــت تمامًا.. دخان يخرج من النوافذ..

وعند ســـؤاله يجيب بأنه يعد بعض الطعام ويشويه داخل المنزل.. وأجزل لهم العطاء ليتركوه في حاله ولا يسألون عما يفعل.. مع مرور الوقت اعتاد أهل القرية علـــى أفعاله الغريبة وتعايشـــوا معهـــا حتى أصبحت بالنسبة إليهم ليســـت بغريبة.. إلى أن بدأت الماشية في الاختفاء.. تعددت الحوادث وكثرت.. أعازوا الأمر إلى الذئاب.. شددوا الحراسة على أرجاء المكان.. ولكن لابد من لحظه غفلة ما.. وتختفي بعدها ماشـــية أخرى.. تطور الأمر إلى اختفاء بعض الأطفال والعذارى.. هنا جن جنون أهـــل القرية.. وتم تأمين المـــكان بأكمله والبحـــث في كل بقعة.. ولا أثـــر.. حتى قال أحدهم أنهم لم يبحثوا عند الثري!

طرح بعضهم الفكرة أرضًا.. ولكن آخرون أصروا على تفتيشه.. انطلقوا إليه يطرقون بابه ولكن بلا جدوى.. كأنه لم يكن هناك أحد.. قرروا اقتحام المكان.. تجمع بعض الرجال من أولي البأس.. اقتحموا الباب وأوقعوه أرضًا.. خرجت من الدار رائحة شـــنيعة جعلت البعض يتقيأ ما تناوله.. اقتحم الدار آخرون ليجدوا الدماء في

كل مكان، وطلاسم وتعاويذ وتعازيم على الحوائط.. استمر البحث والتفتيش.. وفي كل غرفة مفاجأة جديدة.. بقايا الحيوانات المختفية وأشلائها.. وفي إحدى الغرف أطفال معلقون بخطافات من أقدامهم، والدماء تسيل في إناء كبير أسفلهم.. اشتعل اهل القرية جنونًا واندفعوا كالمجاذيب بحثًا عن ذلك الوغد.. ولكن لا أثر له.. في آخر غرفه وجدوا العذراوات بعد أن فقدن عذريتهم.. فازداد اشتعال الرجال حتى بلغوا حد الانفجار.. البحث عن ذلك الـ(.....) لإطارة رأسه وتقطيع جسده جزءًا جزءًا.. ولكن أين هو؟ أين ذهب؟ فجأة اندلع دخان كثيف في وسط الحجرة وتجمع في هيئة رجل ليظهر ذلك الثري.. أجفل الرجال واضطربوا.. وبعد أن كانوا على وشك الانفجار أصبحوا على وشك البكاء!

فما حدث أمامهم غير طبيعي بالمرة.. حتى أن أحدهم هتف أنه الشيطان ذاته!

انتزع أحدهم نفسه من خوفه وهو يصيح فيهم:

- حتى وإن كان الشيطان.. سندعه بعد أن فعل كل هذا لأطفالنا وفتياتنا؟ لا نخوة فينا ولا رجولة وقتئذٍ..

وكأنما كلماته كانت كالسحر، فاندفعت الدماء الحارة مرة أخرى إلى عروقهـــم وانطلقوا إليه مزمعين الفتك به.. وانقلب الأمر إلى مذبحة كامله الأرجاء.. قَتَل فيها ذلك الساحر أكثر من خمسة وعشرين من رجال القرية، ولكن الكثرة تغلب السحر!

ولكنه ألقى لعنة على أهل القرية وأقسم أنه سيعود مرة أخـــرى.. أخرج أهل القريه بناتهم ووقفوا بالخارج يلقون بالأخشاب المشتعلة والنيران حتى أتت على المكان بأكمله، وانطلقت من داخل المكان صرخات كالمعذبين في سقر.. ماذا كان يفعل بالداخل؟ ماذا كان يمارس؟

لم يعلم أحـــد، ولكن من الواضح أنه كان ســـحرًا أسودًا..

***

٤ - الخلاص

انتهى الحارس من حكايته فسألته كيف علم كل هذا؟

أخبرني أنه مـــن أهل القرية، ولكنـــه كان صغيرًا عندمـــا حدثت الأحـــداث الأخـــيرة.. وأن أهل القرية اعتـــبروا هذا المكان محرم عليهم.. حتى عندما أتت يد العمران والمدنية إلى هنا.. ظلوا في حراســـة المكان حتى لا يدخله غريب، ولكن من الواضح أن الحارس غفل عن دخولي..

ســـألته عن علاقة هذا بما يحدث لابنتي.. أخبرني أن اللعنة التي تركها الساحر وطريقة العودة تأتي عبر عدة طقوس.. أن يدخل أحـــد المكان وهو مظلم وينير ضوء مصبـــاح صغير، ويدخل أحـــد الحمامات ويخلع

ملابسه ممسكًا الضوء ويوجهه إلى عين الحمام.. وقتها سيعود من خلال ابن او ابنة ذلك الدخيل.. وأنا قد نفذت ما يريد بالضبط!

تبًا لك أيتها المثانة الملعونة..

- وكيف سأتخلص منه؟

- يجب أن لا تمر ثلاث أيام على ما فعلت.. وفي اليوم الثاني تأتي بابنتك ليلًا إلى الحمام وتقوم بنفس الطقوس حتى يحضر مرة أخرى وتواجهه، ولن تنتصر عليه إلا بقوة إيمانك وتمسكك بالله.. ولا تخف سأكون بجانبك، فقد انتظرت هذه اللحظة طوال عمري واستعددت لها جيدًا.. هيا اذهب وأحضر ابنتك.. وأنا سأتأهب للمواجهة.. اذهب لا تضيع الوقت فهو ليس في صالحنا..

خرجت مسرعًا وامتطيت سيارتى الصغيره وانطلقت لا ألوي على شيء.. اقتحمت شقتي.. قفزت زوجتي فزعة.. أخبرها في عجالة أنني وجدت الحل.. أحمل ابنتي.. أضعها أمامي.. أنطلق مرة أخرى إلى ذلك المنزل أو المسجد.. أيًا كان.. أقابل ذلك الشيخ.. أدخل إلى الحمام.. أقوم بنفس الطقوس.. أسمع

الخطـــوات.. أخـــرج للمواجهة.. أتوقـــف في خوف.. أتذكر ابنتي.. الشيخ ســـيكون بجانبي.. أتماسك.. أزفر زفرة حارة.. أخـــرج.. لأتلقى تلك الضربة على رأسي.. تسود الدنيا من حولي.. ضربة أخرى.. يغشى عليّ..

***

صداع رهيب.. طنين مدمر بأذني.. ثقل غير عادي بجســـدي.. أفتح عيني ببطء.. أحاول أن أتحرك.. أنا مقيد تمامًا.. غشاوة على عقلي.. ضباب على عيني.. الموجودات تتضح.. ابنتي ملقاة أمامي.. ذلك الشـــيخ يرسم على الأرض بعض الرســـومات التي لا أتبينها.. ينظر إليَّ وهو يقول:

- اســـتيقظت.. حســـنًا في الوقت المناسب.. لترى طقوس إعادة ســـيدي مرة أخرى.. لقد كنت ســـاذجًا أكثر من الطفل الصغير الذي ينتظر قطعة حلوى من ذلك الغريب الذى اختطفه!

كل ما أخبرتك به صحيح إلا جزءًا صغيرًا.. أنني كنت أحد الأطفال الذين خطفهم الســـاحر وعلمهم طريقة إعادتـــه مرة أخرى.. ولكن كان يجب الانتظار

عدة سنوات.. وإن وافتني المنية فهناك من كان سيقوم بالمهمة مـــن بعدي.. وقد مرت الســـنوات، وكما تنبأ سيدي بأنه سيأتي أحد السذج في هذا اليوم، وسنستخدم ابنته في إعادته مرة أخرى للحياة.. ســـيدي الذي باع روحه للشـــيطان وأصبح جزءًا منه.. ســـيعود لتكتمل قوته ونبدأ سويًا السيطرة.. السيطرة على أهل الأرض وجعلهم عبيدًا للشـــيطان، واســـتعدادًا لحضور السيد الأكبر والذي أوشـــك على الظهور.. السيد الأكبر الذي تعرفونه باسم...

المسيح الدجال!

وانطلقت ضحكته ترج أركان المكان

***

بداية جديدة

أخيرًا تخرجت وانتهت أيـــام الكلية.. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن..

الآن يبدأ زمن الراحة والهدوء..

بدأت في المضي ســـريعًا في إجراءات التخرج وسحب الأوراق واستخراج الشهادة ..

أنت تعلم هذه الأيام المليئة بالبيروقراطية..

ملل واستيقاظ مبكر والذهاب إلى الكلية يوميًا لأخذ اوراقـــك، لتفاجأ بأن مدام «عنايـــات» لم تأتي اليوم.. فتسأل في سذاجة عمن ينوب مكانها..

ليجيبك أحدهم وهو يضحك بجانب فمه ويقول لك بلهجة ســـاخرة أنه ليس هناك من ينوب عنها.. ويجب أن تأتـــي غدًا لتختم لك الأوراق..

تخرج وأنت تنفخ بفمك من الغيظ لترتاد الحافلة لتعود إلى بيتك..

تقف منتظـــرًا إياها على المحطة، وضوء الشـــمس الحارقة يزيد مـــن تأففك وغيظك..

تأتي الحافلة التي تكتظ بالركاب، حتى أنهم يتدلون منها خارجين، متعلقين بأطراف أصابعهم بأي شـــيء يمكن أن يبقيهم على قيـــد الحياة ويبقي على توازنهم الذي يعجز عنه أعتى لاعبي الســـيرك، بداخل الحافلة التي لا يقف ســـائقها أبدًا في المحطـــة، بل يقترب منها ويقلل من سرعته لتندفع الأجساد نحوه، وهم يدفعون من يجري مـــن حولهم في محاولة بائســـة للقفز فيها والتعلق بـــأي جزء يمكن التعلق به للعودة إلى بيتهم..

تلك القفزة التي لو رآها بطل القفز لفغر فاه دهشة ولخر صعقًا..

أعدو لأقفـــز بداخلها وأتلاحم مـــع أكوام اللحم وأدس نفسي بينها كالسردين، لأظفر في النهاية بمكان بداخلها، فأنا أخشـــى كثيرًا أن يتدلى جسدي لأصبح عرضة لأي حادث..

أحاول أن أحافظ على توازني وأنا أقف بقدم واحدة، وتزكم أنفي رائحة العرق المختلطة بروائح كريهة تنبعث من أفواه الركاب..

يتملكنى شعور بالقيء.. أطرده بعيدًا حتى أصل إلى محطتي وأتخذ طريق العودة للبيت..

أتصفح إحدى الجرائد لأجد هناك إعلان عن طلب وظائف في أحد البنوك الكبرى، ولكنه فى الغردقة!

كم تمنيت أن أسافر وأعيش فيها.. زرتها مرة واحدة من قبل في بداية دراستي في الجامعة مع أصدقائي..

أبهرتني كثيرًا وأعجبت بها وتمنيت أن أعيش فيها..

- استيقظ.. أفق.. يجب أن تصحو الآن قبل فوات الأوان..

اخترقت تلك الكلمات ذهني وأنا ممسك بالجريدة كأنما تأتي من أعلى..

ظننت أنه التعب الذي أصابني من مجهود اليوم.. تابعت أفكاري عن الغردقة، ليأتي ذلك الصوت مرة أخرى:

- ألم تسمعني جيدًا؟

هيا اترك ما بيدك وضـــع تفكيرك كله وتركيزك على الاستيقاظ.. هيا فأنا أعلم أنك قادر على فعلها.. استيقظ!

الوقت يمر ومصير الأرض كلها بين يديك.. يجب أن تصحو فالخطر القادم أدهى وأمر مما تمر به الأرض الآن.. الأمل معقود عليك..

ألقيت الجريدة جانبًا وأنـــا أنظر حولي برعب.. لا أحد من حولـــي.. صحت بصوت مرتجف:

- مممممن أنننننتتتت.. أو مممماااا أنننننتتتتتت؟!

ارتجفت كل خلية في جسدي.. يبدو أنه أحد الجان ويريد أن يتلبســـني.. انتفضت عندما عاد الصوت بقوة قائلًا:

- أنا لست أحد الجان.. ستعرف من أنا لاحقًا ولكن الآن يجب أن تضع كل قدرات عقلك على الاستيقاظ والعودة؛ فمصير الأرض أنت من سيحدده.. ألا تتذكر عندما اســـتيقظت في المرة الأولى، لتجد من يســـتغل قدرات عقلـــك الفائقة في محاولة لفتـــح فجوة بيننا وبين عالمهم الذي أوشـــك على النهاية، وأنت من وقف لهم بالمرصاد؟

ولكنهـــم تغلبوا عليـــك وأدخلوك فـــى دائرة من الكوابيس حتى لا تســـتيقظ منها، وإشـــعارك بالخوف والرعـــب والضغط على عقلك ليبـــث موجات التوتر والخوف التي يتم تجميعها في خزانات متطورة، وعندما تصل إلى الحد المســـموح ســـيطلقونها لفتح بوابة من عالمهـــم يعبرون فيها إلينا هم وجيشـــهم، ليبدأ احتلال الأرض ونقل ســـكانهم إلينا..

أدرت رأسي يمينًا ويسارًا وأنا أشعر أنني قد مررت بكل ما يقول من قبل..

(لمزيد من التفاصيل راجع رواية «ليلة بلا نهاية».

ملحوظة.. تسلســـل الأحداث متصل منفصل.. إذا لم تقرأهـــا فلن يؤثر ذلك على أحداث الرواية)

- يجب أن تســـتحث خلايا عقلك على العودة على الاستيقاظ ولا شيء غيره..

اســـتنفرت كل خلايا عقلي كما يســـتنفر حامل الأثقـــال عضلات ســـاعديه محاولًا حمـــل ثقل جديد ليضرب بـــه أحد الأرقام القياســـية الجديدة..

استنفار تام شعرت معه بثقل رهيب في عقلي مع دوار عنيف وضغط هائل علـــى صدري، كأنني تحت أعماق

سـحيقة في أحد البحـار.. أحاول أن أنفـذ ما يقول وأنا أصفي ذهني وأركز جيدًا.. يجب أن أسـتيقظ.. يجب أن.. يجب.. فجأة سـطع ضوء قوي أعمى عيني للحظات، لأعاود فتحها لأفاجأ بأن كل شيء من حولي قد اختفى تمامًا..

***

- سيدي هناك أمر عجيب جدًا يحدث..

قالها ذلـك الرجل وهو يقتحـم إحدى الغرف في تلـك البناية المهجورة من الخارج في أحد البقاع الغير معمـورة بالقرب من صحراء «بلبييس».. ليقفز الرجل من مقعده قائلًا:

- أي أمر ذلك الذي جعلـك تقتحم الغرفة على ذلك النحو؟ قل سريعًا، فإذا لم يكن مهما فسأسعد بأن أرسلك إلى أرضنا ولا تعود مرة أخرى..

ابتلع الرجل لعابه بصعوبة وهو يجاهد ليقول:

- هناك نشاط عقلي فائق يتداخل مع النشاط الذي يبثه عقل «ت ع ١٥» يا سيد «أوكارا».

- نشاط عقلي فائق؟ أي هراء هذا الذي تقوله؟ من أين يأتي وكيف؟ وما هو؟

- إنه أشبه يا سيدي باتصال خارجي.

- اتصال خارجي؟ ماذا تقصد؟ قل فورًا بلا توقف.

- وكأنما «ت ع ١٥» يتلقى اتصالًا عقليًا خارجيًا فائق القوى يا سيدي..

اتصالًا من عالم آخر..

***

بياض تام..

بياض يعمي الأبصار..

بياض ساطع كتلك الملابس البيضاء في إحدى إعلانات مساحيق الغسيل..

وقف «ت ع ١٥» ينظر حوله إلى ذلك الفراغ الأبيض الذي أصبح فيه..

كل شيء أبيض.. السقف أبيض.. الأرض بيضاء على مرمى البصر.. لا يرى الا بياضًا.. كل ما حوله أبيض ولا شيء آخر.. فراغ تام ملطخ بالأبيض..

أخذ يتجول في المكان ويتفحصه.. لا شيء هناك.. لا أشخاص.. لا حدود.. لا مكان!

اعتصر مخه ليتذكر أي شيء عن هويته.. عن حقيقته.. عن ذكريات أو أحداث سابقة..

مرت أمامه كصور تظهر وتختفي سريعًا أمام عقله.. طريق مقفر.. أشباح.. لصوص.. ساحر.. حوادث قتل.. خفير.. استيقاظ.. التحام مع غرباء من عالم آخر.. عالم مواز للأرض ينفجر، ولم تتبق له إلا أيام معدودة.. جيوش تتأهب لغزو الأرض.. قدرات عقلية كان يمتلكها ولا يعلم.. حفزتها تجربة الغرباء لتخرج إلى السطح.. هزيمتهم أمامه ومعرفته بما يخططون له.. آخر ما يتذكره محاولة غلق الفجوة ولا شيء بعدها.. يبدو أنهم تمكنوا من هزيمته بطريقة ما وإعادته مرة أخرى على ذلك الفراش لامتصاص طاقته، لفتح الفجوة وإحضار جيوشهم.. حسنًا كما قال ذلك الصوت الغريب.. يجب أن يستيقظ لإنقاذ الأرض، لكن من هو؟ وما الذي أتى به إليه في عالم الأحلام؟ وأي خطر آخر يتحدث عنه سيأتي إلى الأرض؟

كل هذا لا يهم الآن.. يجب أن يضع تركيزه الآن على الاستيقاظ ومحاولة إيقاف أولئك الغزاة عن ما

يفعلون وإحباط مخططاتهم.. سيجلس هنا في هذا الفراغ وسيركز فقط ولا شيء آخر.. جلس على الأرض البيضاء وهو يغلق عينيه جيدًا ويشحذ عقله على أمر واحد.. الاستيقاظ.. مر الوقت وهو على نفس الوضعية ولم يتحرك قيد أنملة، وفجأة حدثت فرقعة قوية في الفراغ واندفع هواء قوي أطاح به من مكانه، تلاه انفجار قوي ليرتطم عقله بشيء ما لم يعلم ما هو، وبعد أن كان الوجود كله من حوله يتسم بالبياض.. انزلق عقله في ظلام دامس للغاية ...

- هل توصلتم إلى ماهية هذا الاتصال العقلي؟

قالها أوكارا وهو عاقد يديه خلف ظهره ويقطع الغرفة مجيئًا وذهابًا..

ومن أمامه يجلس رجلان يرتديان معاطف بيضاء وهما يعبثان بألواح مفاتيح جهازي حاسب آلي.

أجابه أحدهما:

- نحن نحاول تتبع تلك الموجات العقلية يا سيدي، ولكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت؛ فنحن لا نعلم من أين تأتي..

ولكنها موجات فائقة القـــوى لم نرى لها مثيلًا من قبل..

- هل من الممكن أن نســـتغل تلـــك الموجات في فتح الفجوة بين عالمينا؟

- لا يا ســـيدي؛ فهذه الموجـــات موجهة لـــ«ت ع ١٥» فقط، ولكن هنـــاك أمرًا أغرب يحدث..

نظر إلى أوكارا في قلق ليكمل الرجل:

- موجات «ت ع ١٥» تتعالى بدرجة لم نعهدها من قبل.

التمعت عينا أوكارا وقال في لهفة:

- وهل تمكنتم من تجميع تلك الموجات؟

أجابه الآخر:

- لا تخف يا سيدي.. بهذا المعدل الذي يخرجه «ت ع ١٥»، سنتمكن من جمع ما نريد من ذبذبات عقلية تكفي لفتح الفجوة في غضون ســـاعات، ولكن يجب أن يستمر على نفس المعدل كما هو..

زفر أوكارا في ارتياح وهو ينظر إلى شاشـــة تنقل له ما يحدث في عالمه مـــن دمار وانفجارات، ثم قال بصوت خافت:

- صبرًا يا رفاق.. ما هي إلا سويعات وسنحتل ذلك العالم ونستعبد أهله.. سويعات قليلة..

وتراجع وهو يبتسم في ظفر..

***

ظلام دامس أحاط بعقله.. كل شيء أسود تمامًا.. لا يرى أي شيء ولا حتى يده..

وقف وهو لا يعلم على ماذا يقف..

حرك عينيه في كل مكان.. لا شيء.. سواد تام..

من البياض التام إلى السواد التام..

قاطعه ذلك الصوت الذي تردد بداخل عقله:

- لا تخف.. أنت الآن في طور الاستيقاظ.. حفز كل خلايا مخك وعقلك لتفيق مما أنت فيه.

صرخ بعلو صوته:

- من أنت؟ من أنا؟ ما الذي يحدث؟

أجابه:

- كل هـــذا لا يهم الآن.. المهم أن تنقذ الأرض من الخطر الحالـــي، وإنك عليه لقادر، وتســـتعد لمجابهة الخطر القـــادم فهو أدهى وأمر..

سأســـاعدك بكل قوتي أن تســـتيقظ، وإن كان هذا ســـيؤثر على قدراتي قليلاً..

وإذا استدعى الأمر أن أشارك معك في إغلاق الفجوة إذا فتحت ســـأفعلها، ولكن وقتها سأستنفذ الكثير من قوتي، ولا أعلم كيف سأتصل بك مرة أخرى..

أما عن ســـؤالك عن من أنت.. أعدك أنك عندما تفيق سأعيد إليك ذكرياتك.

ما أطلبه منك الآن أن تســـتيقظ ولا تفكر في شيء إلا الاستيقاظ..

ركز فيما قلت لك وسأساعدك بقدراتي العقلية..

هيا الآن..

توترت ملامح «ت ع ١٥» وهو يشـــحذ كل عقله على فكرة واحدة.. الاســـتيقاظ.. وفجـــأة انبعث من حول رأســـه هالة حمراء أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، وظهر من لا مكان شـــعاع أخضر انطلق نحوه بســـرعة

غـــير عادية.. وما إن ارتطم بهالته الحمراء حتى أطلق صرخة قوية، وكأنما ينشره أحدهم بمنشار كهربائي، لتســـيل الدماء من أنفه ويسقط أرضًا بلا حراك..

***

جلـــس قائد وحاكم الأرض الأخـــرى على مقعده والقلق ينهـــش صدره؛ فقد أخبره أوكارا أن هناك أمر غير عادي يحدث لـــ»ت ع ١٥»، ولكنه لم يوضح الكثير.. تأمل الشاشـــات التي تحيط به مـــن كل جانب وتنقل له كل ما يـــدور في أنحاء الأرض من انفجارات وزلازل وبراكين تلتهـــم الأخضر واليابـــس، والصواعق التي تصيب ما تشاء.. لا يعلم ولم يعلم أحد ما الذي حدث.. فجأة وبدون مقدمات منذ عدة أشهر انتشرت في الأرض كل ألوان وأشـــكال غضب الطبيعة.. في بادئ الأمر لم يلقوا بالًا لها.. كأي أمر يحدث بشكل طبيعي.. زلزال هنـــا بركان هناك صاعقة هنا ســـيول هناك.. إلى أن تطور الأمر وانتشر في أرجاء الأرض كلها بطريقة غير طبيعيـــة تمامًا.. حاولوا بكل الطـــرق وكل ما وصلوا إليه من تكنولوجيا أن يسيطروا على الوضع ويتحكموا فيه.. لكن الأمر تفاقم وانتشر بطريقة غير طبيعية.. لم يقـــدروا فيها على الوقوف أمام ما يحدث.. في تلك

الآونة اكتشف أحد العلماء وسيلة لفتح فجوة بين العوالم المتوازية.. وتم فتحها بعد أن استنفذوا الكثير من الطاقة.. وكان الفتح لمدة بسيطة.. عندما اكتشف آخر أنه من الممكن فتح فجوة أكبر ونقل أشخاص أكثر، بالموجات التي تبث من العقل عند الشعور بالخطر والخوف.. انتقل بعض العلماء ورجال الجيش للأرض الأخرى لفحصها ودراستها.. وتم القبض على بعض أهلها، ليكتشفوا أن موجات أهل تلك الأرض أقوى بكثير من موجات عقلهم، رغم أنهم يتفوقون عليهم تكنولوجيًا وذكاءًا.. ولكن ما سبب قوة تلك الموجات؟

لم يعرفوا.. وليس هناك وقت للمعرفة؛ فالأرض لن تنتظر لمعرفة السبب.. قام البعض باختراع جهاز للكشف عن أصحاب اقوى موجات عقلية، وقاموا باختطافهم ووضعهم في تجارب كابوسية يعيشها من خلال جهاز موصل برأسه، وكأنه يعيشها في الحقيقة، لتحفيز عقله ووضعه في أخطار ومواجهات ينتج من خلالها تلك الموجات، التي يتم امتصاصها ووضعها في أجهزة معينة وتجميعها للوصول إلى الحد المناسب لفتح فجوة تكفى لنقل الجيش والأسلحة وعلية القوم من الأرض

الأخرى، لاحتـــلال الأرض وإخضاعها لحكمهم.. وفي مقابل ذلك تم إحضار ١٥ شـــخص لاستنفاذ طاقتهم إلى أن ماتوا أثناء التجربة، وتم إطلاق اســـم على كل شـــخص منهم: «تجربة علميـــة ١» أو «ت ع ١».. إلى أن وصلـــوا إلى رقم ١٥.. وهذا الشـــخص كانت موجاته غـــير عادية.. موجات فائقة لدرجة لم يروها من قبل.. كيف ولماذا ولم هو بالذات؟

لا يهم.. المهم هو أنه ســـيمكنهم من فتح الفجوة.. ولكن يجب أن يتم ذلك في الوقت المناســـب..

تنهـــد حاكم الكوكب «ماتســـوكي» وهو يتذكر كل ما مر به في الشـــهور الأخـــيرة.. ثم يلتفت للباب الرئيسي للقاعة وهو يضغط زرًا في ساعده، ليفتح باب الغرفة ويدلـــف منه رئيس الأمن «أوهـــارا»، وهو يلقي عليه التحية العسكرية ويقف متصلبًا في تلك الوقفة العسكرية بلا حراك..

بادله ماتسوكي التحية وهو يلقي نظره على شاشة تنقل له كل ما يحدث بالخارج من دمار وخراب يحدث لكوكبه..

شاشـــة ضخمة تحتـــل حائطًا بأكمله ومقســـمة إلى مربعـــات كثيرة، تنقل لـــه كل ما يحدث في المدن الرئيســـية للكوكب بأكمله..

عاد ينظر إلى أوهارا وهو يقول في حنق:

- لماذا يا أوهارا؟

نظر إليه أوهارا في عدم فهم للحظة ثم قال:

- لماذا ماذا يا سيدي؟

- لماذا يحدث لنا كل هذا؟ ما السبب؟

صمت أوهارا وهو يبحث عـــن إجابة مقنعة لكنه لم يجد، فآثر الصمت.

ليتابع سيده ماتسوكي:

- لقد وصلنا إلى تطور مذهل وعلوم غير عادية، حتى بعد أن اكتشفنا الفضاء من حولنا بأكمله اكتشفنا بوابة العالم الموازي.. كيف بكل تقدمنا وعلومنا الغير محدودة والتي تفوقت على كل أراضي العوالم الأخرى لا نستطيع أن نســـيطر على تلك الزلازل والبراكين والصواعق التي ضربت أرضنا بلا سبب؟!

إن أعدادها غير طبيعية وتستمر في تزايد مطرد.. هل هو غضب الله فعلًا كما يقول العامة؟ الذي لا أؤمن أنا وأغلب شعبنا بوجوده، وإن هو إلا أساطير الأولين.. هل هو هناك فعلًا ويتنقم منا لعدم إيماننا به؟!

هل من كنا نعبده من أجدادنا ليس هو الإله الحق؟

ظل أوهارا على صمته قليلًا ولا يجيب.. استمر ماتسوكي في متابعة البراكين التي تأكل القرى والمدن وتجرفها جرفًا، والزلازل وهي تسقط البنايات كأحجار الدومينو، والصواعق التي تصيب الناس في الشوارع، والرياح العاصفة التي تترك الناس كأعجاز النخل الخاوية.. أراد أوهارا أن يغير دفة الحديث ليسأل سيده:

- أما من أخبار عن أوكارا سيدي؟

نظر إليه بعينين شاردتين ليطلق تنهيدة حارة ويقول في خفوت:

- لا جديد بعد.. يبدو أن هناك أمر ما يواجهه، ولكن يتضح من لهجته أنه يسيطر على الأمر وليس كالمرة السابقة.. وأن الوقت اقترب لاستكمال عملية تجميع الانبعاثات العقلية لتحويلها لذبذبات فائقة،

وفتح الفجوة لنقل جيشنا للسيطرة على الأرض ونقل سكاننا إليها..

ثم ازدرد لعابه وهو يسأله في عجالة:

- وأنت كيف تسير الأمور معك؟

ضغط أوهارا على زر في بذلته ليتغير المشـــهد أمام الشاشات، لتظهر طوابير لا حصر لها في عدة أماكن.. من رجال ونســـاء وأطفال يقفون أمـــام مبانٍ ضخمة ويحيط بهم رجال الأمن من كل مكان، وهم يوجهونهم داخل المباني..

- كما ترى يا سيدي.. منذ التمرد الأخير ومحاولة البعض اقتحام المباني للوصـــول إلى أماكن الانتقال إلى الأرض الأخرى، وأوامر سيادتك باستخدام السلاح السري.. وتم بعدها السيطرة على الموقف، بعد أن رأى الناس ما أحدثه فيمن وقع تحت يده.. والاختبارات تتم سريعًا لفحص الأشخاص لاختيار من له الصلاحية في الذهاب إلى هناك..

تابع ماتسوكي الشاشـــة قليلًا ثم طلب من أوهارا الانصراف وهو يعيد الشاشـــة لتعـــرض الانفجارات في

الكوكب، وهو يتساءل بداخله.. ماذا لو لم ينجح أوكارا في فتح الفجوة في الوقت المناسب؟

ما الذي سيحدث وقتها؟

وارتجف قلبه بداخله لتنتقل الارتجافة إلى جسده كله

***

اقتحم ذلك الرجل غرفة أوكارا مرة أخرى وهو يقول:

- سيدي.. إن ما يحدث غير طبيعي..

انتفض أوكارا من على مقعده وهو يفيق من الغفوة التي وقع فيها..

- ما الذي يحدث أيضًا؟ فدائمًا ما تأتيني بأمور غير طبيعية، فما الجديد هذه المرة؟

- موجات ١٥ يا سيدي..

-ما بها؟

- الموجات تشير إلى أن عقله أشرف على الاستيقاظ.

أمسكه أوكارا وهو يصرخ:

- مســـــتحيل.. لقد تلافينا أخطاء التجربة الأولى التي أدت إلى استيقاظه في تكرار نفس الكابوس بنهايات مختلفـــة، وجعلناه هذا المرة يعيش كوابيسًـــا متغيرة حتى لا يكتشف عقله الفائق ما يحدث، ويفيق ليواجهنا مرة أخرى..

- هذا ما حدث يا سيدي.. يبدو أن الموجات الخارجية التي أتت من العالم الآخر لها يد فيما يحدث..

- أتعلم مغبة ما تقول يا رجل؟ أتعلم أنه لو استيقظ ما الذي سيحدث؟

حتـــى وإن انتصرنا عليه كمـــا فعلنا من قبل، فلن يكون هناك وقت لفتح الفجوة.. سينهار عالمنا وسيدمر تمامًا.. كل من عقدوا علينا الآمال ســـيموتون.. لن نستطيع إنقاذهم وإنقاذ من نحب..

قاطعه الرجل:

- لقد تمكنا من تعبئة كمية انبعاثات في السويعات الأخيرة لم نكـــن نتوقعها؛ خصوصًا مـــع تدخل تلك الموجات الأخرى.. وقد اكتشفنا طريقه لاستكمالها من عقله حتى لو استيقظ، عن طريق تشغيل أحد الأجهزة لأخذ المتبقي منه عند اســـتيقاظه واستخدامه لقدراته

في مواجهتنا، كما فعل في المرة الأولى.. كما تنتقل الذبذبات من أجهزة الـ«واي فاي» إلى مستقبلها..

التمعت عينا أوكارا وهو يقول:

- إذا كان كما تقوله حقيقي، فأعدك أنك والطاقم ستحصلون على مراتب عليا، إذا تم الانتقال..

- ولكن هذا يتطلب منا الاستعداد له عند الاستيقاظ وتحفيزه على استخدام قدراته..

- حسنًا فليستيقظ إذا أراد، وسنستمر في مخطتنا، وليرني كيف سيوقف احتلال الأرض..

وأطلق بعدها ضحكة قوية.. ضحكه تنقلت بين عالمين..

***

صرخة مدوية انطلقت بأذنيه لتمر بين خلايا عقله وتحفزه ليطلق الإشارات إلى أطرافه وعينيه.. صرخة بكلمة واحدة.. استيقظ..

ليستيقظ عقله دفعة واحدة ويعتدل من الوضع نائمًا على ذلك الفراش، وينتزع الخراطيم التي تملأ جسده وهو يقول:

- نعم لقد مررت بكل هذا من قبل، ولكن هذه المرة هي الأخيرة، فلن أسمح لهم بالسيطرة عليَّ مرة أخرى..

هبط من الفراش ليحـــاول الوقوف وتحفزت جميع عضلات جسده وأذنيه لالتقاط أي صوت يدل على اقتراب أحد.. فهو يعلم من الكاميرا المثبتة في جانب الحائط أنهم يراقبونه؛ وبالتبعية علموا أمر اســـتيقاظه.. نظر بعينيه إلى الكاميرا وهو يطلـــق موجات عقلية ليفجر عدستها إلى شظايا صغيرة.. إذا كان هو لا يراهم فهم أيضًا لن يروه، وليســـتعد لما هو قادم، فالأمر بالنســـبة اليهم حياة أو موت كوكبهم.. ولن يتوانوا في إنقاذه.. ولكن النقطة التي سيستغلها كثيرًا هي أنهم يريدونه حيًا ليســـتكملوا مخططهم.. والآن سينتظر اقترابهم، وفي نفس الوقت سيعمل على تحفيز قواه والتحكم فيها وتطويرها، فلا فرصة للخطأ هذه المرة أبدًا..

***

جلـــس أوكارا على مقعده وهو يراقب عبر شاشـــة الرصد ما يقوم به «ت ع ١٥» وهو ينزع الخراطيم ويقف على جانب السرير ثم يوجه عينيه إلى الكاميرا لينقطع بعدها البث تمامًا.. أخذ يحك ذقنه بأطراف أصابعه، فما تم أمامه أمر لا تفســـير له أبـــدًا.. لقد عرفوا أن

التكرار كان السبب في استيقاظه المرة الأولى.. لهذا لم يكرروا الخطأ، ولكن هذه المرة جاء اتصال من بُعد آخر أيقظه.. موجات عقلية فائقة لكائن ما أو شخص ما تدخل لإيقاظه، وكأنه يعلم ما يخططون وما سيفعلون.. من هذا الكائن؟ وكيف يعلم؟ وما هي قوته؟ وأين هو؟ ولمَ لمْ يأتِ لإنقاذه؟ لم تتدخل بعقله؟

استمر في مراقبه الشاشة الصماء وهو يتمتم:

- من أنت يا «ت ع ١٥»؟ وما سر تلك القدرة العقلية الفائقة التي تمتلكها ولم تكن تعلم عنها شيئًا؟ ولماذا أنت بالذات؟ وكيف احتملت كل التجارب التي أجريناها على عقلك؛ في حين أن أربعة عشر شخصًا من قبلك لم يتحملوا رغم قوه عقلهم وذكائهم اللامحدود..

أفاق على قرعات بالباب ليلتفت إليه ويأمر الطارق بالدخول.. دخل إليه مسئول الأمن وهو يقول في آلية عسكرية:

- لقد استفاق سيدي.. هل نتدخل الآن أم ما هي أوامرك؟

نظر إليه قليلًا وهو يفكر بعمق..

- كلا دعه.. سنضع خطه للهجوم، ولن يكون عشوائيًا كالمرة السابقة.. من الواضح أنه تذكر كل ما حدث، وسيتلافى أي أخطاء قد تحدث.. أحضر إليَّ «سيمونفار» لنناقش خطة الهجوم..

تلعثم الواقف أمامه وهو يقول:

- ولكن يا سيدي إن بادر هو بالهجوم واستغل عنصر المفاجأة.. ماذا سنفعل؟ خاصة أننا لا نرى شيئًا مما يفعله بالداخل..

أغلق أوكارا عينيه قليلًا مفكرًا ثم قال:

- حسنًا فلتضع إثنين من الحراس على باب الغرفة.. وإحدى قنابل الكهرباء على بعد منهم، حتى إذا تمكن من تخطيهم ستعطله قليلًا..

لم يكد ينتهي من كلامه حتى صدر أزيز متصل من جهاز فوق مكتبه، فضغط عليه ثم استدار إلى شاشة عملاقة بعرض الحائط أمامه ليظهر عليها ماتسوكي بوجه متجهم وهو يتحدث بعصبية:

- أوكارا.. ما الأخبار عندك؟

لقـــد أزف الوقت.. الـــزلازل والبراكين والصواعق اشـــتدت وتزايدت في خلال ساعات عشرات الأضعاف.. أرجو أن تبلغني بأخبار ســـعيدة..

أجابه في سرعة:

- لا تخش شـــيئًا سيدي.. لقد شـــارفنا على فتح الفجوة، وســـتعبرون خـــلال ســـويعات.. الأمور تحت الســـيطرة، ونحتاج إلى بعض القدرات العقلية القليلة ليكتمل المقـــدار المطلوب..

تنفس ماتسوكي الصعداء وهو يقول:

- أســـرع إذن؛ فقد بدأت الأمور تخرج عن السيطرة، ولم أخبرهم أن كل من سيعبر هو رجال الجيش وكبار الســـلطة فقط، وما زال باقي الشعب يظن أننا سنختار منهم وسيعبر منهم الكثير، حتى لا تتفاقم الأمور..

أجاب أوكارا:

- فلتضع ثقتك في يا ســـيدي.. ما هي إلا ساعات وســـتكونون جميعًا بجانبي هنا، وسنســـيطر على هذا العالم ونســـود كعهدنا دائمًا..

قالها وقلبه لا يشعر بالثقة فيما يقول، فهل سيقدر على فتح الفجوة في الوقت المناسب فعلًا أم لا؟

***

- أحسنت.. لقد فعلتها يا بطل..

عاد ذلك الصوت مرة أخرى إلى عقلي..

- أحسنت صنعًا بالفعل.. لم تخيب أملي فيك، وأرجو ألا تخيبه فيما هو قادم بعد أن ننتهي من هذا الخطر الحالي..

جلست على طرف الفراش وأنا أهتف بداخل عقلي:

- من أنت؟

- لا يهم الآن.. ستعرف كل شيء في وقته.. يجب أن تعلم أنني أعرفك جيدًا وأعلم قدراتك العقلية.. يجب أن تحسن استخدامها مع أولئك القوم لتنقذ الأرض.. ولا تخش شيئًا.. سأكون معك، وإذا تطلب الأمر تدخلي سأفعلها، ولو أن هذا سيؤثر عليَّ كثيرًا وقد لا أتمكن من الاتصال بك بعدها..

- كيف ستدخل وكيف سيؤثر عليك؟

- دعك الآن من كل هذا يا «عمر»..

- «عمـــرَ» ؟ أتعلم من أنـــا، أتعلم اسمي؟ هل اسمي عمـــر فعلًا؟ كيف عرفت؟ أين والداي؟ أين أســـكن؟

- حنانيـــك يا عمر حنانيـــك.. وقت الإجابات لم يحن بعد.. كل ســـتعلمه في حينـــه.. فلنركز فقط على ما نحن فيه الآن.. سأعيد إليك ذاكرتك الآن، وليكن في علمك أن الأمر سيرهقني كثيرًا، ولكنني لن أجد من هو أغلى منك لأضحي بأي شيء في سبيله.. فلتســـتعد، فإن الأمر لن يكون هينًا على عقلك..

- آاااه.. نااااااااااااااااااااااار..

أشعر أن عقلي يذوب.. خلايا مخي تنصهر وكأنما بركان يتفجر بداخل عقلـــي.. صور كثيرة اندفعت أمامي.. طفل رضيـــع يبكييؤذن رجل فى اذنه .. طفل يمشـــي ويتعثر ويقع.. ســـيدة حنون تحمله وتقبله.. طنين يصم أذناي، وكأن ألف دبور بداخلها يصدر أزيزه في آن واحد.. رجل طيب يقول:

- ســـتكون سندي في الكبر، فأنا لم أنجب غيرك.. لا تتخل عني..

شـــاب مراهق تموت أمه.. يبكـــي عليها من الدموع أنهارًا.. أب يربـــت على كتفه ويقول:

- لم يبق لنا سوى بعضنا..

الرحمة، الغوث.. أسقط أرضًا والعرق يتساقط مني سيولًا.. الجامعة والدراسة والتخرج، وأبي تتساقط من عيونه دموع الفرحة.. الاحتفال بالتخرج والعمل بإحدى الشركات.. رجل مسن لا يقوى على المشي..

- أنقذووووووووووووووووني..

وفاة أبي أغلى ما في حياتي على فراشه.. مراسم الدفن، وأنا في طريق العودة إلى بيتي مكلومًا يهاجمني ثلاثة أشخاص ملثمين، ويتم اقتيادي إلى مكان لا أعلمه..

فجأة انتهى كل شيء.. كل الآلام اختفت وكأنها لم تكن.. لم يبق لها أثر، وكأنك ألقيت بحجر في بحيرة، فأثار تلك الموجات مكان سقوطه، ثم ابتلعته البحيرة وعاد سطحها إلى طبيعته كأنما لم يكن هناك شيء.. الآن علمت من أنا ومن والداي رحمهما الله واين أعيش.. كل تاريخ حياتي استرجعته.. الآن يجب أن أنتقم من أولئك الأوغاد الذين سلبوني كل ذكرياتى واختطفونى ودموعى لم تبرد بعد على ابى .. الأوغاد.. أين هم؟!

بالتاكيد هم علموا بأمري.. لمَ لمْ يأتوا؟ يبدو أنهم يدبرون لأمـــر كبير.. يجب أن أبادر بالهجوم بدلًا من إضاعة الوقت وانتظارهم، فالهجوم خير وسيلة للدفاع.. بالتأكيد قد أخـــذوا احتياطاتهم وينتظرونني.. يجب وضع خطة قبل التحرك..

قالها وارتســـمت على شـــفتيه ابتســـامة ذئب ذهب لأكل أحد الأغنـــام القاصية؛ فقد وضع خطته، وهذه المرة ســـتكون بلا رحمة..

***

اقتحـــم أحد الرجال مكتـــب أوكارا وهو يصرخ في فرح:

- سيدي سيدي..

نظر إليه أوكارا بغل.. إذا كان كل مرة سيقتحم عليه مكتبه فما فائدة الباب إذن؟

فليخلعـــه ويترك مكتبه متاحًـــا لأي أحد أفضل.. استدار والشرر يتطاير من عينيه إلا أن الداخل أخرسه قبل أن يفتح فمه:

- حدث أمر عجيب آخـــر.. يبدو أن الأمور العجيبة لن تنتهي في هذه الليلة يا سيدي، ولكنه أمر في صالحنا تمامًا..

قال له في لهفة:

- قـــل يا رجل.. لم توقفت؟ آتني بأي خبر يزيح عني ما بكاهلي..

- لقـــد حدثت موجات عقلية أخـــرى منذ قليل من ذلك العالم الآخـــر.. أتت على حين غرة ولكن جهازنا الذي زرعناه وتم تعديلـــه لالتقاط الموجات الخارجية التقطها وعبئها، وكانـــت كمية كبيرة جدًا..

قال أوكارا في فرح:

- وهل ستكفي لفتح الفجوة؟

أجابه الرجل في سرعة:

- لا يا سيدي، ولكنها قللت الوقت تمامًا.. نحتاج إلى ساعة بالأكثر إذا اســـتحثينا عقله على إفراز الموجات لفتحها..

قالها لينادي أوكارا على سيمونفار، رئيس الحرس الذي أتى في ســـرعة.. أخبره أوكارا في عجالة بإلغاء

الخطة السابقة، وأعطى له جميع الصالحيات في تنفيذ مـــا يريد.. لم يكذب خبرًا واتجـــه إلى رجال الأمن وهو يخطب فيهم ويتجول أمامهم عاقدًا يديه خلف ظهره:

- أيها الرجال.. إنكم تعلمون جيدًا لم تم اختياركم مـــن بين كل الجنود في أرضنا.. إنكم نخبة من أفضل الجنود.. لا تهابون ولا تخافون.. ما أحتاجه منكم الآن قد يودى بحياة بعضكم، ولكن هذا لا يهم، فهذا عملنا، وهذا ما نشـــأنا عليـــه.. ولكن بتضحياتكم ســـتهبون الحياة لمن تحبون.. لأولادكم وزوجاتكم ولملككم، فهل أنتم لأرواحكم لهم واهبون؟

قال الرجال في صوت واحد كهزيم الرعد:

- أرواحنا فدائهم ســـيدي.. لا نخشـــى، لا نهاب، لا نخاف..

- إليكم الخطة التي ســـنقوم بتنفيذها.. عددنا ١٢ رجل.. سيبقى أربعة لحماية القائد أوكارا.. وإثنان في الممر، وأربعة سيقتحمون المكان، وإثنان بالخارج.. يجب أن نجعله يســـتخدم قدراته بكل قـــوة، حتى يكتمل ما نحتاج لفتح الفجـــوة.. ووقتها لن نكون في حاجة إليه وسنقتله.. ولكن إلى أن نأخذ منه ما نريد حافظوا على

حياته، وفي المقابل من الممكن أن نفقد بعض الحيوات..

انطلق صوتهم مرة أخرى:

- لا يهم سيدي.. كلنا فداء لملكنا..

- هـــذا ما توقعتـــه منكم.. هيا بنـــا الآن فلا وقت نضيعـــه.. تحرك الرجال ليأخـــذ كل منهم موضعه، وانطلق ســـتة رجال في تشـــكيل هجومي وهم يرفعون أســـلحتهم ويتحركون في تناغـــم يوضح قوة تدريبهم وفهمهم لبعضهم البعـــض.. وصل أول أربعة إلى الباب فأشـــاروا إلى الآخرين ليقفوا خلفه.. تأهب أولهم ثم ركل الباب بكل قوته، وهو يقفز بداخل الغرفة ويتبعه الثلاثة الآخرون، لتتسع أعينهم من الذهول.. فالغرفة كانت خاوية.. خاوية على عروشـــها!

***

- حمقى فعلًا هؤلاء العبيد.. أيظنون أنهم سيساوون رءوسهم بنا؟

أنـــا ماتســـوكي حاكم الكوكب ومســـاعديني.. نتساوى بهذا الشـــعب الحقير؟

نحن في طبقة أعلى منهم كثيرًا.. ألا يكفي أننا من نوفر لهم الأمن والأمان ونحميهم من أي اخطار تواجههم؟! ألا يكفي أننا ظللنا نطعمهم ونسقيهم طوال تلك السنوات وهم لا يستحقون العيش من الأساس؟ نحن الأسياد وهم العبيد وسنظل كذلك.. حتى عندما نذهب إلى تلك الأرض الأخرى سنكون أسيادًا هناك.. هذا هو قدرنا وقدرهم.. دعهم يموتون هنا مع أرضهم.. أما نحن فسنذهب لنحقق ما حققناه هنا وأكثر..

أفاق من تفكيره على صوت انفجار ضخم هز الأرض من تحته، فترنح على إثرر الاهتزازت.. استدعى رئيس الحرس في سرعة ليسأله عما حدث.. جاء أوهارا بوجه ممتقع وهو يلهث.. سأله ماتسوكي في عجالة:

- ما الذي حدث يا أوهارا؟

- صاعقة مدمرة أصابت مخزن الأسلحة الأيونية سيدي..

اتسعت عينا ماتسوكي في فزع..

- اللعنة وما الذي حدث؟

- لقد انفجر تمامًا هو بكل ما به من أسلحة وقنابل.

استشاط ماتسوكي غضبًا وأمسكه من تلابيبه وهو يقول:

- هل تعلم نتيجة ما تقول أيها الغبي؟

- نعم يا سيدي، ولقد انطلقت سحابات الإشعاعات، وما هي إلا ساعات وتحيط بالكوكب كله وتحجب ضوء الشمس لنغرق في ظلام دامس، ويختفي أي أثر للحياة على أرضنا من جرائها..

أفلته ماتسوكي بعصبية ليرتد أوهارا إلى الخلف ناكسًا رأسه في الأرض..

ثم ضغط على زر الاتصال بأوكارا في توتر..

جاءه أوكارا من الأرض الأخرى بوجه شاحب:

- خيرًا سيدي..

- أوكارا.. لقد انفجر مخزن الأسلحة، والأشعة ستغرق الكوكب في ساعات.. ما الوضع عندك؟

- يا للهول.. أتتكلم بجدية سيدي؟

اشتعلت عينا ماتسوكي قائلًا:

- وهل تعرف عني الهزل أيها الأبله؟

- لم أقصد سيدي ولكنني قلتها متعجبًا..

- مـــا الوضع عندك؟ يجب أن يتـــم الانتقال خلال ثلاث ســـاعات على الأكثر..

- لا تخف يا ســـيدي.. الأمور تســـير كأفضل مما يكون، وفي أقل من ذلك ســـيبدأ الانتقال.

تنفس ماتسوكي الصعداء..

- أرجو أن تكون محقًا، وســـتكون مساعدي في حكم الكوكب..

تهللت أسارير أوكارا:

- هذا شرف عظيم لي سيدي..

انقطع الاتصال لتظهر لأوكارا شاشة المراقبة وهي تنقل له فريق الاقتحام وهو يقتحم غرفة ١٥، ويتساءل من أعماقه.. هل ستسير الأمور كما هو خطط لها، أم أن ١٥ له نظرة أخرى؟

***

اقتحم الرجال الغرفة ليجدوها خاوية كمعدة فأر لم يأكل منذ ثلاثة أيام..

تلفت الأول يمينًا ويسارًا، وبحث الثاني تحت الفراش وبداخل خزانة الملابس، لينظـــروا إلى بعضهم بعضًا.. وهنا وقعت السماء على رءوسهم حرفيًا.. استخدم عمر قواه العقلية ليعلق نفسه تحت سقف الغرفة مباشرة.. ليســـقط على أحدهم وهـــو يضربه بعصًـــا حديدية استخرجها من الفراش المعدني، ليطيح به أرضًا، وعاجل الآخـــر الذي لم يفق من المفاجـــأة بضربة قوية على أم رأســـه، ليتفجر الدم منها وهو يسقط أرضًا كالبالون المثقوب.. هذه المرة لا تهاون أيها الأوغاد.. لن تنجحوا كما فعلتم سابقًا.. اندفع الثالث ليمسكه من خصره ويندفع به إلى الحائط ليرتطما به بقوة وتسقط من يده العصا الحديدية.. قام الرجل ســـريعًا وكال إلى عمر لكمة قويـــة في معدته، لينثني على إثرها عمر.. أتبعها الرجـــل بأخرى في فكه ليقع أرضًـــا.. قفز الرجل على عمر لينظر إليه عمر في غضب ويتسمر الرجل في الهواء ويده مرفوعه أمامه.. ثم دفعـــه بقوه ليرتطم بالرابع ويســـقطا أرضًا.. هنا دخل الرجلان الآخران بالخارج بعد أن ارتفعت أصوات القتـــال.. ليجدوا زميلهم وهو

في الهواء معلقًا بين السماء والأرض ويرتطم بالاخر ليسقطا أرضًا.. اندفع الإثنان للنيل منه، وانطلقا من اتجاهين مختلفين لتشتيت موجاته العقلية.. أوقف عمر أحدهما بقوة عقله، ليندفع الآخر من خلفه وهو يقيد حركته ويحيطه بيديه.. التفت إليه ليتحرر الأول ويندفع يكيل له اللكمات.. من الواضح أنهم أدركوا مدى خطورة قواه فاستعدوا له جيدًا.. أغمض عينيه وهو يدفع نفسه للتركيز.. أتاه ذلك الصوت مرة أخرى:

- يجب أن تثق بقدراتك فأنت أقوى منهم.. صف ذهنك وعقلك.. ارسم بمخك طريق النجاة..

أطلق صرخة مدوية وهو يطلق موجاته العقلية بكل قوته لتندفع كموجات تضاغطية تنشأ بعد انفجار القنبلة التي هو مركزها، وتدفع بالرجلين إلى الحائط ليرتطما به ويسقطان أرضًا مغشيًا عليهما.. خرج عمر في حذر من الباب ثم رفع رأسه لينظر إلى الكاميرا فوقه، والتي تنقل ما يحدث في الممر خارج الغرفة إلى أوكارا، ثم ابتسم بسخرية وهو يقول:

- والآن حان دورك، وفي هذه المرة لا رحمة..

وأتبع قوله بموجة عقلية دمر بها الكاميرا، لترتجف أوصال أوكارا من اول رأسه إلى أخمص قدميه، وتتردد في عقله كلمة واحدة.. لا رحمة

***

تسارعت نبضات قلب أوكارا وهو يجلس داخل غرفته بعد أن انقطعت الصورة من أمامه بعد أن دمرها عمر، فكاميرات الغرفة التي بها محل التجربة متصلة بمفردها على شاشة الرصد، أما باقي الكاميرات فمتصلة ببعضها.. وتدمير واحدة منها كفيل بإيقاف باقي الكاميرات.. لقد أصبح كالكفيف لا يرى ما يحدث بالخارج، ومعنى خروج عمر منها أنه تمكن من إيقاف الأربعة الذين هاجموه، وما هي إلا دقائق ويصل إليه، ووقتها فعلًا لن يرحمه، فمصير أرض عمر يتوقف على قتله، ومصير أرضه يتوقف على بقاء عمر على قيد الحياة، ومصيره نفسه يتوقف على قتل عمر.. أي معضلة وأي مصيبة.. هل يتخلى عن أرضه وينقذ نفسه ويقتل عمر؟ هل أصلًا سيتمكن من إيقافه وقتله؟

اندفع ذلك العالم ليقتحم الباب مرة أخرى لينتفض من فوق كرسيه وينقلب أرضًا.. ثم هب واقفًا وهو يهتف:

- أيها الملعون.. ألا يمكنك أن تقرع الباب أبدًا؟

- سيدي لقد أوشكنا على فتح الفجوة..

التمعت عينا أوكارا في ظفر..

- أحقًا ما تقول؟

- نعم يا سيدي.. لقد انطلقت موجات عالية منذ استيقاظه ومواجهته لرجالنا؛ مما جعل المخزون يكاد يكتمل..

شرد أوكارا ببصره.. هل من الممكن أن ينتهي الكابوس ويتمكن من فتح الفجوة قبل وصول عمر إليه؟ إذا حدث هذا ووصل الجنود لن يقف أمامهم أحد..

نظر إلى الرجل وهو يقول في سرعة:

- لماذا تقف هنا؟ اذهب وتابع الأمر، ولا تأتني المرة القادمة إلا وأنت معك ما يكفي لفتح الفجوة..

ثم نظر إلى شاشات العرض وهو يقول:

- فلنر ما في جعبتك أيها المغرور.. ما هي إلا دقائق وتنتهي الأرض كما تعرفها..

وأطلق ضحكة عاليـــة أطلق معها كل ما في صدره من توتر..

***

- لا تخف أنـــا معك.. لقد أنهيت الجزء الأول من المهمة أفضل مما توقعت..

انطلق ذلـــك الصوت مرة أخرى فرد عليه ســـريعًا وكانما اعتاد الأمر:

- ألن تخبرني من أنت؟ هل أنت أحد من الجان؟ روح من عالم آخر؟

ما أنت؟

- لا تقلق يا عمر.. ســـتعلم كل شـــيء في حينه.. ســـأؤكد عليك مرة أخرى أنني معك ولن أتدخل إلا إذا احتاج الأمر تدخلي.. ووقتها قد يحدث ما لا تُحمد عقباه، ولكن ما باليد حيلة..

ثم اختفى الصوت مرة أخرى كعادته..

تقدم عمر بحذر في الممر المؤدي إلى الغرفة الرئيسية.. قابله الرجلان الموكلان لحراسة الممر.. لن نطيل ونعيد

ما حدث.. استقبلهما عمر بموجات عقلية ولم يستمر القتال كثيرًا.. كانت الغلبة فيه لعمر..

تردد ذلك الصوت في عقله وهو يقول:

- لقد أوشـــكت الفجوة على الاكتمال.. يجب أن تسرع، لم يعد لدينا وقت.. من الواضح أنه استخدامك للموجـــات قد أمكنهم من فتحها في وقت قصير..

توتر عمر وتحفزت كل خلاياه وهو يتقدم في سرعة للغرفة الرئيسية..

- خذ حذرك ودافع عن الأرض بكل ما أوتيت من قوة، ولا تخف.. يبدو أنه لا مفر من تدخلي..

ظهر الباب أمامه ووقف مـــن خلفه أوكارا ورئيس الأمن والأربع رجال في تحفز تام، في حين عكف العلماء على محاولة سحب أي موجات انبثقت لإتمام العملية..

وعلى الجانـــب الآخر وقف جنـــود الأرض الأخرى بداخل قاعة مبنى الرئاســـة، ومن خلفهم رجال الدولة وكبرائها وملكهم، في اســـتعداد للانتقال الفورى إبان فتحها والســـيطرة على الأرض..

اقتحم عمـــر الغرفة بعنف وهو يزيـــح الباب بقوة عقله، ليخرج من مفاصله وهو يندفع ناحية إثنين من رجال الأمن ويرتطم بهما ليقعا أرضًا مغشـــيًا عليهم.

تعجب عمر من قوة دفع الباب..

يبـــدو أن الأدرينالين المنبعث منه أعطى قوة إضافية لقـــوة عقله.. اشـــتبك الرجلان الآخـــران معه بقوة يدفعهم بها خوفهـــم على أرضهم والرغبة في إنقاذ من يحبون..

فجأة صرخ أحد العلماء:

- لقد اكتملت طاقة الفتح..

نظر إليه أوكارا وهو يصيح:

- وماذا تنتظر يا رجل؟ هيا افتحها..

وأعـــاد نظره إلى عمـــر الذي تفوق علـــى الرجلين الباقيين واشـــتبك معه رئيـــس الأمن..

اندفع أوكارا وهو يقول:

- لم تعد لنا حاجة إليه.. اقتله..

لم يكد يصدر الأمر حتى شـــهر ســـلاحه وأطلقه في سرعة على عمر، لتنطلق منه موجات وذبذبات ارتجاجية جعلت عمر يشـــعر وكأنما هنـــاك زلزالًا يحدث داخل جسده، او أن أحد القطارات قد اتخذ من جسده قضبانًا ليسير عليها..

تمالك نفسا سريعًا ليسمع رئيس الأمن وهو يقول:

- الأخرى ستقضى عليك تمامًا..

أطلق أشعته مرة أخرى، ليقابلها عمر بموجات عقله وتندفع في اتجاه الموجـــات الارتجاجية، لينطلق صفير مدوٍ يصم الآذان..

وتتوقف الموجات في هواء الغرفة، ليدفعها عمر ناحية رئيـــس الأمن والثلاثة علمـــاء الموكلين بفتح الفجوة لتصيبهم وتنطلق الصرخات منهم وتتفجر الدماء من أعينهم وآذانهم ويسقطون أرضًا وقد فقدت أعينهم بريق الحياة..

هتف أوكارا وهو يندفع ناحية جهاز ضخم:

- لن تنجح، فقد اكتملت الفجوة وســـتبدأ نهاية كوكبك الآن ..

قالهـــا وهو يقفز بقوة ويده تتجه لزر أحمر في جهاز فتح الفجـــوة، ليطلق عمر موجات عقله ومعها صرخة قوية أودع فيها كل توتـــره وخوفه على أرضه، لتندفع نحو أوكارا الذي ضغط الزر قبل أن تصل إليه الموجات، ثم ترتطم بها لتدفعه إلى الجهاز وتدمرهما ســـويًا..

صرخ عمر:

- لاااااااااااااااااا..

انطلق صفير خافت في سماء الغرفة، واندفعت رياح قويـــة في منتصفها تدور حول نفســـها، كما الدوامة تتكون في المنتصف..

وقـــف عمر مكتوف الأيدي، لا يـــدري ماذا يفعل أو كيف يغلقها..

اســـتمرت الفجوة في الاتســـاع، لتظهر من خلفها قاعة عظيمة يقف بهـــا جيش كامل مجهز بكل عتاده وأسلحته..

ارتبك عمر وسقط قلبه بين قدميه..

ليعود الصوت يتردد في ذهنه:

- كما قلت لك سابقًا.. لا تخف.. لن أدعك ولن أدعهم ينتصرون على أرضنا.. سأبذل ما بوسعي لإنقاذ أرضنا، وهذا سيؤثر على الاتصال بك مرة أخرى، ولكنني سأجد طريقة أخرى للتواصل لأعلمك كيفية مواجهة الخطر القادم..

تصاعد صوت الجنود وهم يهتفون بهتافات كما رجال الصاعقة اختلط بصفير الرياح.. لينطلق أزيز عجيب في سماء الغرفة وكأنما هناك ألف دبور يقتربون، قرقعة عاليه وصواعق كهربائيه ضربت سما الغرفه , وانبعث دخان ابيض يميل الى الازرق اخذ يتشكل ويتجمع ليظهر بداخله كيان يتشكل .. وأمام عيني عمر المتسعتين ظهر رجل لا هو ظل رجل أو خيال رجل..

شيء أو كيان ما في هيئة رجل ولكنه أسود تمامًا.. ليس أسودًا كالزنوج؛ بل هو ظِلّ بالمعنى الكامل للكلمة.. ظل يتحرك في الغرفة ليقف بجوار عمر ويوجه رأسه نحوه، ليتردد برأس عمر صوت يقول:

- استخدم قوة عقلك ووجهها إلى الفجوة، وأنا سأساعدك بقوه عقلي لعلهما يتمكنان من غلقها مجتمعين . .

وجه عمر نظـــره إلى الفجوه وأغلـــق عينيه وركز أفـــكاره وكيانه وكل ما يملك علـــى فكرة واحدة.. إغلاق الفجوة..

انطلقت موجاته وسمع الصوت يقول:

- أحســـنت.. الآن ســـأطلق أيضًا فقد بـــدأ عبور الجنود..

فتح عمر عينيه للحظة ليجد الجنود يعبرون الفجوة من جهتهم..

اســـتحضر كل مخزون الأدرينالين في جسده ليزيد من قوة عقله، لينطلق من عقله شـــعاع شـــفاف ناحية الفجوة، وينطلق من ذلك الظل شعاع آخر التحم مع شـــعاع عمر، واندفعا نحو الفجوة التي كانت قد بلغت أقصى اتساع لها..

- أحســـنت يـــا عمر.. أكمـــل على نفـــس القوة وســـنغلقها ســـويًا بإذن الله..

زادت الجملة من حماسة عمر ليزيد من قوته..

- هيا.. لقد بدأت في الانغلاق..

فتح عينيه ليجد أمامه الفجـــوة وهي تنكمش مرة أخرى وتعود إلى مركزها، وعلى الجانب الآخر ارتفعت صرخـــات حانقة غاضبـــة، وهم يرون عمـــر يقف أمام الفجوة ويحاول إغلاقها..

- اســـتمر.. ســـتنغلق خلال دقيقة على الأكثر.. لا تقف.. لا تستســـلم.. لا تيأس.. أعلم أن ما تفعله يحرقـــك مـــن الداخل.. يحـــرق خلايـــاك.. يحرق عقلـــك؛ بل يحرق روحك ذاتهـــا، ولكن هذا كله في ســـبيل الأرض.. قد يحدث انفجار بعـــد غلقها، وهذا الانفجار ســـيؤثر على اتصالي بك.. ولكنني أعدك أن أعود وأجد طريقة أخرى للتواصل لكي أعلمك كيف تواجـــه الخطر القادم، ومن تبعيات انفجار غلقها أنك لن تتذكر أي شيء على المدى القريب.. ستفقد ذاكرة كل ما حدث هنا وكل قدراتك، لكنني سأعلمك مرة أخرى كيفية اســـتخدامها، ولكن ذاكرتك الأساسية التي أعدتها إليك ستظل كما هي.. هيا يا بطل لقد اوشـــكنا على الانتهاء.. ثوان فقط وستنغلق عليهم..

لم يكد ينتهـــي من كلامه حتـــى أغلقت الفجوة، وانبعثـــت منها موجـــة تضاغطية دفعـــت عمر أمامها ليرتطم بالحائط، وهى تكمـــل طريقها لتزيد ضغطه

علـــى الحائط وتدخل فى ثنايـــا عقله، ليصرخ صرخة كألف صرخة، وتظلم الدنيا بعدها من أمامه تمامًا..

***

- مستحيل..

صرخ ماتسوكي وهو يضرب الأرض بقدميه:

- لقد كنا قاب قوســـين أو أدنى من المرور.. كيف تمكن هذا الحقير من إغلاقها؟

رد عليه أحدهم:

- لم يكن وحده.. لقد ساعده أحدهم..

نظر إليه والشرر يتطاير من عينيه..

- وهل يصنع هذا فارقًا؟ لقد انتهى أمرنا.. سنموت جميعًا خلال ساعة أو أقل..

ثم التفت إلى بعض الرجـــال ممن يرتدون معاطف بيضاء:

- أســـرعوا.. حاولوا أن تفتحوها مرة أخرى.. من المؤكـــد أن هناك طريقة ما..

اندفع أحدهـــم إلى جهاز مماثل لما كان في الناحية الأخرى وأخذ يضغط أزراره في ســـرعة وتوتر.. ثم زفر بتنهد:

- حمدًا للملك ماتسوكي..

لقد تمكن الجهاز من تخزين كل الطاقة التي بثها الرجل وهو يغلق الفجوة..

لقد كانت طاقة هائلة وتكفي لفتح أخرى..

- ماذا تنتظر يا رجل؟ هيا فلتقم بعملك..

- أعطني نصف ساعة فقط سيدي..

اندفع بعض العلماء لمساعدته..

نظر ماتسوكي إلى مكان الفجوة وهو يقول في ظفر:

- لقد ذهبت مجهوداتك هباءً أيها الحقير..

وتعالـــت ضحكاتـــه لتنقطع على صوت قوي شـــق القاعة لتخترق صاعقـــة قوية قبة الحماية.. صرخ في فزع:

- ما الذي حدث؟

أجابه أحدهم:

- لقـــد انهارت قبـــة الحماية يبـــدو أنها لم تحتمل الصواعق مـــن حولنا..

صرخ في علمائه في رعب:

- هيا تحركوا سريعًا.. يجب أن تفتحوها الآن..

تحرك الرجـــال في توتر محاولين بذل أقصى ما في جهدهم..

لتهتز الأرض بقوة من تحتهم وتنشـــق لتبتلع عدة جنود..

صـــرخ رئيس الأمن وهـــو يســـقط في الفجوة التي تكونت..

أخذ ماتســـوكي يجري في هلع وهـــو لا يعلم أين يذهب لتشـــق الســـماء صاعقة وتخترق سقف القاعة لتصيب بعض الرجال بعد أن حطمت السقف نهائيًا..

قال أحد الرجال بصوت عالٍ:

- يبدو أنها النهاية سيدي..

- كلا لن يكون.. افتح الفجوة.. يجب أن تفتحها الآن حتى لو لم يدخلها سواي..

توتر العالم المتبقي وهو يتصبب عرقًا ثم قال:

- حسنًا سيدي.. من الممكن أن أفتحها الآن، ولكنها ستتمكن من نقل عدد محدود فقط منا..

صرخ:

- هيا افعلها يا رجل..

- الآن سيدي.

ثم ضغط زرًا لتبدأ في الفتح مرة أخرى.. تحرك نحوها ماتسوكي في سعادة طفل يجري نحو محل الحلوى، ليحدث أمر عجيب بحق.. انطلقت صاعقة لتصيب ماتسوكي!

في نفس اللحظة تنشق الأرض لتبتلعه بداخلها، وتنطلق بعدها الصواعق تصيب من تشاء في القاعة.. ولم يكن الحال خارج القاعة بأفضل من داخلها؛ فقد انطلقت الصواعق في كل مكان تصيب من تشاء، وتنشق الأرض لتبتلع من تشاء.. وبدا فعلًا أنها النهاية..

نهاية أرض أخرى..

تمت بحمد الله

الخامس عشر من أكتوبر عام ٢٠١٨

***